

أبا هريرة فقال: أسأل الله أن يجمع بيني وبينك في سوق الجنة، وذكر الحديث مثل ما تقدم. وهذا يبين أن الحديث محفوظ عن الأوزاعي، لكن في تلك الروايات سمى من حدثه، وفي الروايات البواقى الثانية لم يسم، فالله أعلم.

ومضمون هذا الحديث: أن أزواجهم لم تكن معهم في جمعة الآخرة، ولا في سوقها، لكنه لا ينفى أنهن رأين الله في دورهن، فإن الرجال قد عللوا زيادة الحسن والجمال بمجالسة الجبار، والنساء قد شركتهم في زيادة الحسن والجمال، كما تقدم في أصح الأحاديث.

/ فصل /

٦/٤٢٠

المقتضى لكتابة هذا : أن بعض الفقهاء كان قد سألني لأجل نسائه من مدة: هل ترى المؤمنات الله في الآخرة ؟ فأجبت بما حضرني إذ ذاك : من أن الظاهر أنهن يرينه، وذكرت له أنه قد روى أبو بكر عن ابن عباس أنهن يرينه في الأعياد ، وأن أحاديث الرؤية تشمل المؤمنين جميعاً من الرجال والنساء ، وكذلك كلام العلماء ، وأن المعنى يقتضى ذلك حسب التسبّع، وما لم يحضرني الساعة .

وكان قد سنع لي فيما روى عن ابن عباس: أن سبب ذلك أن الرؤية المعتادة العامة في الآخرة تكون بحسب الصلوات العامة المعتادة، فلما كان الرجال قد شرع لهم في الدنيا الاجتماع لذكر الله ومناجاته، وترائيه بالقلوب والتنعّم ببقائه في الصلاة كل جمعة، جعل لهم في الآخرة اجتماعاً في كل جمعة لمناجاته ومعابته والتمتع ببقائه.

ولما كانت السنة قد مضت بأن النساء يؤمرن بالخروج في العيد حتى العواتق والحيض، وكان على عهد رسول الله ﷺ يخرج عامة نساء المؤمنين في العيد، جعل عيدهن في الآخرة بالرؤية على مقدار عيدهن في الدنيا.

٦/٤٢١

/ وأيد ذلك عندي ما خرجاه في الصحيحين عن جرير بن عبد الله البجلي قال: كنا جلوساً عند رسول الله ﷺ إذ نظر إلى القمر ليلة البدر فقال: «إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته ، فإن استطعتم ألا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروبها فافعلوا » ثم قرأ : ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ﴾ (١) [طه ١٣٠] ، وهذا الحديث من أصح الأحاديث على وجه الأرض المتلقاة بالقبول ، المجمع عليها عند العلماء بالحديث وماتر أهل السنة .

(١) البخاري في الصلاة (٥٥٤)، وأبو داود في السنة (٤٧٠٣)، والترمذي في صفة الجنة (٢٥٥١)، وأحمد

ورأيت أن النبي ﷺ أخبر المؤمنين بأنهم يرون ربهم، وعقبه بقوله: «فإن استطعتم ألا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس، وصلاة قبل غروبها فافعلوا»، ومعلوم أن تعقيب الحكم للوصف، أو الوصف للحكم بحرف الفاء يدل على أن الوصف علة للحكم، لاسيما ومجرد التعقيب هنا محال؛ فإن الرؤية في الحديث قبل التحضيض على الصلاتين وهي موجودة في الآخرة، والتحضيض موجود قبلها في الدنيا.

والتعقيب الذي يقوله النحويون لا يعنون به: أن اللفظ بالثاني يكون بعد الأول، فإن هذا موجود بالفاء وبدونها ويسائر حروف العطف. وإنما يعنون به معنى: أن التلطف الثاني يكون عقب الأول، فإذا قلت: قام زيد، فعمرو أفاد أن قيام عمرو موجود في نفسه عقب قيام زيد، لا أن مجرد تكلم المتكلم بالثاني عقب الأول، وهذا مما هو مستقر عند الفقهاء في أصول الفقه، وهو مفهوم من / اللغة العربية إذا قيل: هذا رجل صالح فأكرمه، فهم من ذلك أن الصلاح سبب للأمر بإكرامه، حتى لو رأينا بعد ذلك رجلاً صالحاً لقليل كذلك الأمر، وهذا - أيضاً - رجل صالح أفلا تكرمه؟ فإن لم يفعل فلا بد أن يخلف الحكم لمعارض وإلا عد تناقضاً.

وكذلك لما قال النبي ﷺ: «ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه، ليس بينه وبينه حاجب ولا ترجمان، فينظر أيمن منه فلا يرى إلا شيئاً قَدَّمَهُ، وينظر أشأم منه فلا يرى إلا شيئاً قَدَّمَهُ، وينظر أمامه فتستقبله النار، فمن استطاع منكم أن يتقى النار ولو بشق تمرة فليفعَل، فإن لم يستطع فبكلمة طيبة»^(١)، فهم منه أن تحضيضه على اتقاء النار هنا لأجل كونهم يستقبلونها وقت ملاقة الرب، وإن كان لها سبب آخر.

وكذلك لما قال ابن مسعود: سارعوا إلى الجمعة، فإن الله يبرز لأهل الجنة في كل جمعة في كَتِيبٍ من كتب الكافور، فيكونون في القرب منه على قدر تسارعهم في الدنيا إلى الجمعة، فهم الناس من هذا أن طلب هذا الثواب سبب للأمر بالمسارعة إلى الجنة.

وكذلك لو قيل: إن الأمير غداً يحكم بين الناس أو يقسم بينهم، فمن أحب فليحضر، فهم منه أن الأمر بالحضور غداً لأخذ النصيب من حكمه أو قسمه، وهذا ظاهر.

ثم إن هذا الوصف المقتضى للحكم تارة يكون سبباً متقدماً على الحكم / في العقل وفي الوجود كما في قوله: «وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا» [المائدة: ٣٨]، وتارة يكون حكمه متقدماً على الحكم في العلم، والإرادة متأخرة عنه في الوجود كما في قولك: الأمير يحضر غداً، فإن حضر كان حضور الأمير يتصور ويقصد قبل الأمر بالحضور معه، وإن كان يوجد بعد الأمر بالحضور وهذه تسمى العلة الغائية، وتسميها الفقهاء حكمة

(١) البخاري في التوحيد (٧٥١٢)، ومسلم في الزكاة (١٦/١٠٦٧).

الحكم، وهي سبب في الإرادة بحكمها، وحكمها سبب في الوجود لها.

والتعليل تارة يقع في اللفظ بنفس الحكمة الموجودة، فيكون ظاهره أن العلة متأخرة عن المعلول، وفي الحقيقة إنما العلة طلب تلك الحكمة وإرادتها. وطلب العافية وإرادتها متقدم على طلب أسبابها المفعولة، وأسبابها المفعولة متقدمة عليها في الوجود ونظائره كثير. كما قيل: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ﴾ [النحل: ٩٨]، و﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا﴾ [المائدة: ٦] ويقال: إذا حججت فترود. فقوله ﷺ: «إنكم سترون ربكم، فإن استطعتم ألا تغلبوا على صلاتين» إلى: «فافعلوا»، يقتضى أن المحافظة عليها هنا لأجل ابتغاء هذه الرؤية، ويقتضى أن المحافظة سبب لهذه الرؤية، ولا يمنع أن تكون المحافظة توجب ثواباً آخر ويؤمر بها لأجله، وأن المحافظة عليها سبب لذلك الثواب وأن للرؤية سبباً آخر؛ لأن تعليل الحكم الواحد بعلة واقتضاء العلة الواحدة لأحكام جائز. وهكذا غالب أحاديث الوعد كما في قوله: «من صلى ركعتين لا يحدث فيهما / نفسه، غفر له ما تقدم من ذنبه»^(١)، و«من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه»^(٢)، وقوله: «لا تنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها»، فإنكم إذا فعلتم ذلك قطعتم أرحامكم»^(٣) ونحو ذلك، فإنه يقتضي أن صلاة هاتين الركعتين سبب للمغفرة، وكذلك الحج المبرور، وإن كان للمغفرة أسباب أخرى.

٦/٤٢٤

وأيد هذا المعنى أن الله - تعالى - قال: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الأنعام: ٥٢]، وقد فسر هذا الدعاء بصلاتي الفجر والعصر، ولما أخبر أنهم يريدون وجهه بهاتين الصلاتين، وأخبر في هذا الحديث أنهم ينظرون إليه، فتحضيضهم على هاتين يناسب ذلك أن من أراد وجهه نظر إلى وجهه - تبارك وتعالى - .

ثم لما انضم إلى ذلك ما تقدم من أن صلاة الجمعة سبب للرؤية في وقتها، وكذلك صلاة العيد، ناسب ذلك أن تكون هاتان الصلاتان اللتان هما أفضل الصلوات، وأوقاتها أفضل الأوقات - فناسب أن تكون الصلاة التي هي أفضل الأعمال ثم ما كان منها أفضل الصلوات في أفضل الأوقات - سبباً لأفضل الثوابات في أفضل الأوقات.

لاسيما وقد جاء في حديث ابن عمر الذي رواه الترمذي عن إسرائيل، عن ثوير بن أبي فاختة، سمعت ابن عمر يقول: قال رسول الله ﷺ: «إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر إلى جنانه وأزواجه ونعيمه وخدمه وسريره مسيرة ألف سنة، وأكرمهم على الله من

(١) البخاري في الوضوء (١٥٩)، ومسلم في الطهارة (٣/٢٢٦، ٤)، والنسائي في الطهارة (٨٤، ٨٥).

(٢) البخاري في الحج (١٥٢١) ومسلم في الحج (٤٣٨/١٣٥٠).

(٣) البخاري في النكاح (٥١١٠) بلفظ مقارب.

ينظر إلى وجهه غدوة وعشيا » ، ثم قرأ رسول الله ﷺ : «وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ . إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ» [القيامة : ٢٢ ، ٢٣] .

/ قال الترمذي : وقد روى هذا الحديث من غير وجه عن إسرائيل ، عن ثوير ، عن ابن عمر مرفوعاً ، ورواه عبد الملك بن أبجر ، عن ثوير ، عن مجاهد ، عن ابن عمر موقوفاً ، ورواه عبيد الله الأشجعي ، عن سفيان ، عن ثوير ، عن مجاهد ، عن ابن عمر قوله : ولم يرفعه . وقال الترمذي : لا نعلم أحداً ذكر فيه مجاهداً غير ثوير (١) ، وأظنه قد قيل في قوله : «وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا» [مريم : ٦٢] : إن منه النظر إلى الله .

وروى في ذلك حديث مرفوع رواه الدارقطني في «الرؤية» : حدثنا أبو عبيد قاسم ابن إسماعيل الضبيّ ، حدثنا محمد بن محمد بن مرزوق البصري ، حدثنا هاني بن يحيى ، حدثنا صالح المصري ، عن عباد المنقريّ ، عن ميمون بن سيّاه ، عن أنس بن مالك ؛ أن النبي ﷺ أقرأ هذه الآية : «وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ . إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ» قال : والله ما نسخها منذ أنزلها يزورون ربهم - تبارك وتعالى - فيطعمون ويسقون ، ويطيّون ويحملون ، ويرفع الحجاب بينه وبينهم ، فينظرون إليه وينظر إليهم - عز وجل - وذلك قوله : «وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا» .

وقد ذكر أبو الفرج بن الجوزي هذا الحديث في «الموضوعات» وقال : هذا لا يصح ، فيه ميمون بن سيّاه ، قال ابن حبان : ينفرد بالناكير عن المشاهير لا يحتج به إذا انفرد ، وفيه صالح المصري ، قال النسائي : متروك الحديث (٢) .

قلت : أما ميمون بن سيّاه ، فقد أخرج له البخاري والنسائي ، وقال فيه أبو حاتم الرازي : ثقة ، وحسبك بهذه الأمور الثلاثة ، وعن ابن معين قال فيه : / ضعيف ، لكن هذا الكلام يقوله ابن معين في غير واحد من الثقات . وأما كلام ابن حبان ففيه ابتداء في الجرح .

فلما كان في حديث ابن عمر المتقدم ، وعد أعلامهم « غدوة وعشيا » والرسول ﷺ قد جعل صلاتي الغداة والعشي سبباً للرؤية ، وصلاة الجمعة سبباً للرؤية في وقتها ، مع ما في الصلاة من مناسبة الرؤية ، كان العلم بمجموع هذه الأمور يفيد ظناً قوياً : أن هاتين الصلاتين سبب للرؤية في وقتها في الآخرة ، والله أعلم بحقيقة الحال .

فلما كان هذا قد سنح لي ، والنساء يشاركن الرجال في سبب العمل فيشاركونهم في ثوابه ، ولما انتفت المشاركة في الجمعة انتفت المشاركة في النظر في الآخرة ، ولما حصلت

(٢) ابن الجوزي في الموضوعات ٣ / ٢٦٠ .

(١) الترمذي في صفة الجنة (٢٥٥٣) .

المشاركة في العيد حصلت المشاركة في ثوابه .

ثم بعد مدة طويلة جرى كلام في هذه المسألة ، وكنت قد نسيت ما ذكرته أولاً ، لا بعضه ، فاقضى ذكر ما ذكرته أولاً ، فقل لي : الحديث يقتضي أن هاتين الصلاتين من جملة سبب الرؤية ، لا أنه جميع السبب ، بدليل أن من صلاهما ولم يصل الظهر والعصر لا يستحق الرؤية . وقيل لي : الحديث يدل على أن الصلاتين سبب في الجملة ، فيجوز أن تكون هاتان الصلاتان سبباً للرؤية في الجمعة ، كيف وقد قيل : إن أعلي أهل الجنة من يراه مرتين؟ فكيف يكون المحافظون على هاتين الصلاتين أعلاهم؟!!

٦/٤٢٧

فقلت : ظاهر الحديث يقتضي أن هاتين الصلاتين هو السبب في هذه / الرؤية لما ذكرته من القاعدة في النساء آنفاً ، ثم قد يتخلف مقتضى عن المقتضى لما منع لا يقدح في اقتضائه ، كسائر أحاديث الوعد ، فإنه لما قال : «من صلى البردين دخل الجنة»^(١) ، من فعل كذا دخل الجنة ، دل على أن ذلك العمل سبب لدخول الجنة وإن تخلف عنه مقتضاه لكفر أو فسق .

فمن ترك صلاة الظهر أو زنا أو سرق ونحو ذلك كان فاسقاً ، والفاسق غير مستحق للوعد بدخول الجنة كالكافر ، وكذلك أحاديث الوعيد إذا قيل : من فعل كذا دخل النار ، فإن المقتضى يتخلف عن التائب وعمن أتى بحسنات تمحو السيئات وعن غيرهم ، ويجوز أن يكون للرؤية سبب آخر ، فكونه سبباً لا يمنع تخلف الحكم عنه لما منع ولا يمنع أن ينتصب سبب آخر للرؤية . ثم أقول : فعل بقية الفرائض سواء كانت من جملة السبب ، أو كانت شرطاً في هذا السبب ، فالأمر في ذلك قريب ، وهو نزاع لفظي ، فإن الكلام إنما هو في حق من أتى ببقية شروط الوعد ، وانتفت عنه موانعه .

ولا يجوز أن يقال : فالأنوثة مانع من لحوق الوعد ، أو الذكورة شرط ؛ لأن هذا إن دل عليه دليل شرعي ، كما دل على أن فعل بقية الفرائض شرط قلنا به ، فأما بمجرد الإمكان فلا يجوز ترك مقتضى اللفظ وموجبه بالإمكان ، بل متى ثبت عموم اللفظ وعموم العلة وجب ترتيب مقتضى ذلك عليه ما لم يدل دليل بخلافه ، ولم يثبت أن الذكورة شرط ، ولا أن الأنوثة مانع ، كما لم يقتض أن العربية والعجمية والسود والبياض لها تأثير في ذلك .

٦/٤٢٨

/ وكذلك الحديث يدل على أن «المقتصدين» يشاركون «السابقين» في أصل الرؤية ، وإن

(١) البخاري في مواقيت الصلاة (٥٧٤) ، ومسلم في المساجد (٢١٥/٦٣٥) ، وأحمد ٨٠/٤ ، كلهم عن أبي

موسى .

والبردان : الغداة والعشي - صلاة الفجر وصلاة العشاء . انظر : النهاية ١١٤/١ .

امتاز السابقون عنهم بدرجات، ومثوبات، أو شمول المعنى لهؤلاء على السواء، فهذا من هذا الوجه دليل على أن هاتين الصلاتين سبب للرؤية، ووجود السبب يقتضى وجود المسبب، إلا إذا تخلف شرطه أو حصلت موانعه، والشروط والموانع تتوقف على دليل.

وأما الاعتراض على كون هاتين الصلاتين سبب للرؤية في الجملة - ولو في يوم الجمعة - فيقال: ذلك لا ينفي أن النساء يرينه في الجملة ولو في غير يوم الجمعة، وهذا هو المطلوب.

ثم يقال: مجموع ما تقدم من سائر الأحاديث يقتضى أن الرؤية تحصل وقت العمل في الدنيا، فإذا قيل: إن الرؤية تكون غدوًا وعشيًا وسببها صلاة الغداة والعشي، كان هذا ظاهرًا فيما قلناه، والمدعي الظهور لا القطع.

وأما كون الرؤية مرتين لأعلى أهل الجنة وليس من صلى هاتين الصلاتين أعلى أهل الجنة، فليس هذا بدافع لما ذكرناه؛ لأن هذين الاحتمالين ممكنة به، يخرج الدليل عليها، لكن الله أعلم بما هو الواقع منها، يمكن السبب فعل هاتين الصلاتين على الوجه الذي أمر الله به باطنًا وظاهرًا، لا صلاة أكثر الناس.

ألا ترى إلى حديث عمار بن ياسر عن النبي ﷺ: «إن الرجل لينصرف من صلاته ولم يكتب له إلا ربعها إلا خمسها إلا سدسها» حتى / قال: «عشرها» رواه أبو داود^(١)، فالصلاة المقبولة هي سبب الثواب، والصلاة المقبولة هي المكتوبة لصاحبها، وقد بين النبي ﷺ أن من المصلين من لا يكتب له إلا بعضها، فلا يكون ذلك المصلي مستحقًا للثواب الذي استحقه من تقبل الله صلاته وكتبها له كلها.

وعلى هذا، فلا يكاد يندرج في الحديث إلا الصديقون أو قليل من غيرهم، والنساء منهن صديقات.

ويجوز أن يكون من له نوافل يجبر بها نقص صلاته، يدخل في الحديث، كما جاء في حديث أبي هريرة المرفوع: أن النوافل تجبر الفرائض يوم القيامة^(٢).

وعلى هذا، فيكون الموجودون بهذا أكثر المصلين المحافظين على الصلوات، ويكون هؤلاء أعلى أهل الجنة، فإن أكثر أمة محمد ﷺ ما يحافظون على الصلوات، بل منهم من يؤخر بعضها عن وقته، ومنهم من ترك بعض واجباتها، ومنهم من يترك بعضها، وسائر الأمم قبلنا لا حظ لهم في هاتين الصلاتين.

ولو قيل: إن كل من صلى هاتين الصلاتين دخل الجنة على أي حال كان مغفورًا له،

(٢) النسائي في الصلاة (٤٦٥)، وأحمد ٤٢٥/٢.

(١) أبو داود في الصلاة (٧٩٦).

نال هذا الثواب لأمكن في قدرة الله، ولم يكن الحديث نافيًا لهذا؛ إذ أكثر ما فيه أنه من أعلى أهل الجنة، والعلو والسفول أمر إضافي، فيصدق على أهل الجنات الثلاث أنهم من أعلى أهل الجنات الخمس الباقية، ويصدق أيضًا / على أكثر أهل الجنة أنهم أعلى بالنسبة إلى من تحتهم، وبعض هذا فيه نظر. والله أعلم بحقيقة الحال.

لكن الغرض أن هذا لا ينفي ما ذكرناه، وهذا كله لو كان حديث المرتين، يصلح لمعارضة ما ذكرنا من الدلالة، وهو لا يصلح لذلك لما فيه من الاختلاف في إسناده.

ولما جرى الكلام ثانيًا في رؤية النساء ربهن في الآخرة، استدلت بأشياء أنا أذكرها، وما اعترض به علي وما لم يعترض حتى يظهر الأمر، فأقول: الدليل على أنهن يرينه أن النصوص المخبرة بالرؤية في الآخرة للمؤمنين تشمل النساء لفظًا ومعنى، ولم يعارض هذا العموم ما يقتضي إخراجهن من ذلك، فيجب القول بالدليل السالم عن المعارض المقاوم.

ولو قيل لنا: ما الدليل على أن الفُرس يرون الله؟ أو أن الطوال من الرجال يرون الله! أو إيش الدليل على أن نساء الحبشة يخرجن من النار؟ لكان مثل هذا العموم في ذلك بالغًا جدًا إلا إذا خصص، ثم يعلم أن العموم المسند المجرد عن قبول التخصيص يكاد يكون قاطعًا في شموله، بل قد يكون قاطعًا.

أما النصوص العامة، فمثل ما في الصحيحين عن أبي هريرة: أن الناس قالوا، يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال: «هل تمارون في القمر ليلة البدر ليس دونه سبحانه؟» قالوا: لا، يا رسول الله، قال: «فهل تمارون في الشمس/ ليس دونهما سبحانه؟»، قالوا: لا، قال: «فإنكم ترونه كذلك، يحشر الناس يوم القيامة، فيقول: من كان يعبد شيئًا فليتبعه. فمنهم من يتبع الشمس، ومنهم من يتبع القمر، ومنهم من يتبع الطواغيت، وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها، فيأتيهم في صورة غير صورته التي يعرفون، فيقولون: نعوذ بالله منك! هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا - عز وجل - فإذا جاء ربنا - عز وجل - عرفناه، فيأتيهم في صورته التي يعرفون، فيقول: أنا ربكم! فيقولون: أنت ربنا، فيدعوهم فيتبعونه، ويضرب الصراط بين ظهراي جهنم، فأكون أنا وأمتي أول من يجيز، ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل، ودعوى الرمل يومئذ: اللهم سَلِّمْ سَلِّمْ!»^(١) وساق الحديث.

وفي الصحيحين - أيضًا - عن أبي سعيد قال: قلنا: يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال رسول الله ﷺ: «نعم، فهل تُضَارُّون في رؤية الشمس بالظهيرة صحواً ليس معها سبحانه؟! هل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر صحواً ليس فيها سبحانه؟» قالوا:

(١) البخاري في التوحيد (٧٤٣٧)، ومسلم في الإيمان (٢٩٩/١٨٢).

لا يا رسول الله ، قال : « ما تضارون في رؤية الله - تبارك وتعالى - يوم القيامة إلا كما تضارون في رؤية أحدهما ، إذا كان يوم القيامة أذن مؤذن : لتتبع كل أمة ما كانت تعبد ، فلا يبقى أحد كان يعبد غير الله من الأصنام والأنصاب إلا يتساقطون في النار ، حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله من برٍّ وفاجر وغير^(١) أهل الكتاب » وذكر الحديث في دعاء اليهود والنصارى إلى أن قال : « حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله من بر وفاجر ، أتاهم الله في أدنى صورة من التي رأوه فيها ، قال : فما تنتظرون ؟ تتبع كل أمة ما كانت تعبد ، قالوا : يا ربنا ، فارقنا الناس في الدنيا أفقر ما كنا إليهم ، ولم/ نصاحبهم ، فيقول : أنا ربكم ، فيقولون : نعوذ بالله منك لا نشرك بالله شيئاً - مرتين أو ثلاثاً - حتى إن بعضهم ليكاد أن ينقلب . فيقول : هل بينكم وبينه آية فتعرفونه بها ؟ فيقولون : نعم ، فيكشف عن ساق ، ولا يبقى من كان يسجد لله من تلقاء نفسه إلا أذن الله له بالسجود ، ولا يبقى من كان يسجد اتقاء ورياء إلا جعل الله ظهره طبقة واحدة ، كلما أراد أن يسجد خر على قفاه ، ثم يرفعون رؤوسهم وقد تحول في الصورة التي رأوه فيها أول مرة فيقول : أنا ربكم ، فيقولون : أنت ربنا ، ثم يضرب الجسر على جهنم^(٢) .

هذان الحديثان من أصح الأحاديث ، فلما قال النبي ﷺ : « فإنكم ترونه كذلك ، يحشر الناس فيقول : من كان يعبد شيئاً فليتبعه » ، أليس قد علم بالضرورة أن هذا خطاب لأهل الموقف من الرجال والنساء ؟ لأن لفظ « الناس » يعم الصنفين ، ولأن الحشر مشترك بين الصنفين .

وهذا العموم لا يجوز تخصيصه ، وإن جاز جاز على ضعف ؛ لأن النساء أكثر من الرجال ، إذ قد صح أنهن أكثر أهل النار ، وقد صح : لكل رجل من أهل الجنة زوجتان من الإنسيات سوى الحور العين ؛ وذلك لأن من في الجنة من النساء أكثر من الرجال وكذلك في النار ، فيكون الخلق منهم أكثر ، واللفظ العام لا يجوز أن يحمل على القليل من الصور دون الكثير بلا قرينة متصلة ؛ لأن ذلك تلبيس وعي^(٣) ينزه عنه كلام الشارع .

ثم قوله : فيقال : « من كان يعبد شيئاً فليتبعه » ، وصف من الصيغ التي/ تعم الرجال والنساء ، ثم فيها العموم المعنوي وهو : أن اتباعه إياه معلل بكونه عبده في الدنيا ، وهذه العلة شاملة للصنفين ، ثم قوله : « وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها » . والنساء من هذه الأمة مؤمناتهن ومنافقاتهن ، « فإذا جاء عرفناه » ، وقوله : « فيأتيهم في صورته التي يعرفون فيقول : أنا ربكم » ، فيقولون : أنت ربنا فيدعوهم » تفسير لما ذكرناه في أول الحديث من أنهم يرون

(١) الغبر : جمع غابر ، وهو الباقي . انظر : النهاية ٣/ ٣٣٨ .

(٢) سبق تخريجه ص ٢٥٨ .

(٣) أي : عجز وعدم اعتناء . انظر : القاموس ، مادة « عي » .

ربهم كما يرون الشمس والقمر .

والضمير في قوله: « فيأتيهم في صورته التي يعرفون فيقول: أنا ربكم ، فيقولون: أنت ربنا» قد ثبت أنه عائد إلى الأمة التي فيها الرجال والنساء، وإلى من كان يعبد الله الذي يشمل الرجال والنساء، وإلى الناس غير المشركين، وذلك يعم الرجال والنساء، وهذا أوضح من أن يزداد بيانا.

ثم قوله في حديث أبي سعيد: « فيرفعون رؤوسهم وقد تحول في صورته التي رأوها فيها أول مرة» نص في أن النساء من الساجدين الرافعين قد رآوه أولاً ووسطاً وآخرًا، والساجدون قد قال فيهم: «لا يبقى من كان يسجد لله من تلقاء نفسه إلا أذن الله له بالسجود»، و «من» تعم الرجال والنساء، فكل من سجد لله مخلصاً - من رجل وامرأة - فقد سجد لله ، وقد رآه في هذه المواقف الثلاث، وليس هذا موضع بيان ما يتعلق بتعدد السجود والتحول وغير ذلك مما يلتمس معرفته، وإنما الغرض هنا ما قصدنا له.

ثم في كلا الحديثين الإخبار بمرورهم على الصراط، وسقوط قوم في النار، / ونجاة آخرين، ثم بالشفاعة في أهل التوحيد حتى يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان، ويدخلون الجنة ويسمون الجهنميين، أفليس هذا عامًّا للرجال والنساء؟! أم الذين يجتازون على الصراط ويسقط بعضهم في النار ثم يشفع في بعضهم هم الرجال، ولو طلب الرجل نصًّا في النساء في مثل هذا أما كان متكلفًا ظاهر التكلف؟! ٦/٤٣٤

وكذلك روى مسلم في صحيحه عن أبي الزبير: أنه سمع جابرًا يسأل عن (الورود) فقال: نجى نحن يوم القيامة عن كذا وكذا^(١)، انظر أي ذلك فوق الناس؟ فتدعى الأمم بأوثانها وما كانت تعبد الأول فالأول، ثم يأتينا ربنا بعد ذلك فيقول: من تنتظرون؟ فيقولون: ننتظر ربنا، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: حتى ننظر إليك، فيتجلى لهم يضحك، قال: فينطلق بهم ويتبعونه، ويعطى كل إنسان منهم - منافق أو مؤمن - نورًا، ثم يتبعونه، وعلى جسر جهنم كالليب وحسك تأخذ من شاء الله، ثم يطفأ نور المنافقين ثم ينجو المؤمنون^(٢). وذكر الحديث في دخول الجنة والشفاعة.

أفليس هذا ببيّنًا في أنه يتجلى لجميع الأمة؟ كما أن الأمة تعطي نورها، ثم جميع المؤمنين ذكرانهم وإناثهم يبقى نورهم، وكذلك جميع ما في الحديث من المعاني تعم الطائفتين عمومًا يقينًا.

وهذا الحديث هو مرفوع قد رواه الإمام أحمد وغيره بمثل إسناد مسلم، / وذكر فيه ٦/٤٣٥

(١) كذا في مسلم، وصوابه: « على قوم أي فوق الناس».

(٢) مسلم في الإيمان (٣١٦/١٩١) .

عن النبي ﷺ ما يقتضى أن جابراً سمع الجميع منه^(١)، وروى من وجوه صحيحة عن جابر عن النبي ﷺ مرفوعاً، وهذا الحديث قد روى - أيضاً - بإسناد جيد من حديث ابن مسعود مرفوعاً إلى النبي ﷺ أطول سياقه من سائر الأحاديث، وروى من غير وجه.

وفي حديث أبي رزّين العقيلي المشهور من غير وجه قال: قلنا: يا رسول الله، أكلنا يرى ربه يوم القيامة؟ قال: «أكلكم يرى القمر مخلياً به؟» قالوا: بلى. قال: «فالله أعظم»^(٢)، وقوله: «كلكم يرى ربه» كقوله: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، فالرجل راع في أهله وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في مال زوجها وهي مسؤولة عن رعيته»^(٣) من أشمل اللفظ.

ومن هذا قوله: «كلكم يرى ربه مخلياً به»، و«ما منكم من أحد إلا سيخلو به ربه كما يخلو أحدكم بالقمر»، وما منكم إلا سيكلّمه ربه ليس بينه وبينه حاجب ولا ترجمان» إلى غير ذلك من الأحاديث الصحاح والحسان التي تصرّح بأن جميع الناس ذكورهم وإناثهم مشتركون في هذه الأمور من المحاسبة والرؤية، والخلوة والكلام.

وكذلك الأحاديث في رؤيته - سبحانه - في الجنة مثل ما رواه مسلم في صحيحه عن صهيب قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار نادى مناد: يا أهل الجنة، إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه، فيقولون: ما هو؟ ألم يثقل موازيننا، ويبيض وجوهنا، ويدخلنا الجنة، ويجرنا من النار؟ فيكشف الحجاب فينظرون إلى الله فما شيء أعطوه أحب إليهم من النظر إليه»، وهي «الزيادة»^(٤).

قوله: «إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار» يعم الرجال والنساء، فإن لفظ الأهل يشمل الصنفين، وأيضاً فقد علم أن النساء من أهل الجنة، وقوله: «يا أهل الجنة، إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه» خطاب لجميع أهل الجنة الذين دخلوها ووعدوا بالجزاء، وهذا قد دخل فيه جميع النساء المكلفات. وكذلك قولهم: «ألم يثقل... ويبيض... ويدخل... وينجز» يعم الصنفين وقوله: «فيكشف الحجاب فينظرون إليه» الضمير يعود إلى ما تقدم وهو يعم الصنفين.

ثم الاستدلال بالآية دليل آخر؛ لأن الله - سبحانه - قال: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾، ومعلوم أن النساء من الذين أحسنوا، ثم قوله فيما بعد: ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ [يونس: ٢٦] يقتضي حصر أصحاب الجنة في أولئك، والنساء من أصحاب الجنة، فيجب أن يكنَّ من أولئك، وأولئك إشارة إلى الذين لهم الحسنى وزيادة، فوجب دخول النساء في الذين

(١) مسلم في الإيمان (١٩١/٣١٦).

(٢) أبو داود في السنة (٤٧٣١).

(٣) البخارى في الجمعة (٨٩٣) ومسلم في الإمامة (٢٠/١٨٢٩).

(٤) مسلم في الإيمان (١٨١/٢٩٧، ٢٩٨)، والترمذي في تفسير القرآن (٣١٠٥).

لهم الحسنى وزيادة ، واقتضى أن كل من كان من أصحاب الجنة ، فإنه موعود بالزيادة على الحسنى التي هي النظر إلى الله - سبحانه - ولا يستثنى من ذلك أحد إلا بدليل ، وهذه الرؤية العامة لم توقت بوقت ، بل قد تكون عقب الدخول قبل استقرارهم في المنازل ، والله أعلم أي وقت يكون ذلك .

٦/٤٣٧

/ وكذلك ما دل من الكتاب على الرؤية كقوله : ﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ . إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ . وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ . تَتَّظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٥] هو تقسيم لجنس الإنسان المذكور في قوله : ﴿ يَبْنِى الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ . بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴾ [القيامة: ١٣ ، ١٤] ، وظاهر انقسام الوجوه إلى هذين النوعين . كما أن قوله : ﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ . ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ . وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ غَیْرَةٌ . تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴾ [عبس : ٣٨-٤١] أيضاً إلى هذين النوعين ، فمن لم يكن من الوجوه الباسرة كان من الوجوه الناصرة الناطرة ، كيف وقد ثبت في الحديث أن النساء يزددن حسناً وجمالاً ، كما يزداد الرجال في مواقيت النظر؟! وكذلك قوله : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة: ١٧] قد فسر بالرؤية ، وقوله : ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ . عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ﴾ [المطففين: ٢٢ ، ٢٣] ، فإن هذا كله يعم الرجال والنساء .

واعلم أن الناس قد اختلفوا في صيغ جمع المذكر ، مظهره ومضمرة ، مثل : المؤمنين ، والأبرار ، وهو هل يدخل النساء في مطلق اللفظ أو لا يدخلون إلا بدليل؟ على قولين :

أشهرهما عند أصحابنا ومن وافقهم : أنهم يدخلون؛ بناءً على أن من لغة العرب إذا اجتمع المذكر والمؤنث غلبوا المذكر ، وقد عهدنا من الشارع في خطابه أنه يعم القسمين ويدخل النساء بطريق التغليب ، وحاصله أن هذه الجموع تستعملها العرب تارة في الذكور المجردين ، وتارة في الذكور والإناث ، / وقد عهدنا من الشارع أن خطابه المطلق يجرى على النمط الثاني ، وقولنا : المطلق ، احتراز من المقيد ، مثل قوله : ﴿ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ [الأحزاب: ٣٥] ، ومن هؤلاء من يدعي أن مطلق اللفظ في اللغة يشمل القسمين .

٦/٤٣٨

والقول الثاني: أنهم لا يدخلن إلا بدليل ، ثم لا خلاف بين الفريقين ، أن آيات «الأحكام» و«الوعد» و«الوعيد» التي في القرآن تشمل الفريقين وإن كانت بصيغة المذكر . فمن هؤلاء من يقول : دخلوا فيه ؛ لأن الشرع استعمل اللفظ فيهما ، وإن كان اللفظ المطلق لا يشملهما ، وهذا يرجع إلى القول الأول . ومنهم من يقول : دخلوا ؛ لأننا علمنا من الدين استواء الفريقين في الأحكام ، فدخلوا كما ندخل نحن فيما خوطب به الرسول ، وكما تدخل سائر الأمة فيما خوطب به الواحد منها ، وإن كانت صيغة اللفظ لا تشمل غير المخاطب .

وحقيقة هذا القول : أن اللفظ الخاص يستعمل عامًا حقيقة عرفية، إما خاصة، وإما عامة، وربما سماه بعضهم قياسًا جليًا ينقص حكم من خالفه، وأكثرهم لا يسمونه قياسًا، بل قد علم استواء المخاطب وغيره، فنحن نفهم من الخطاب له الخطاب للباقيين، حتى لو فرض انتفاء الخطاب في حقه لمعنى يخصه لم ينقص انتفاء الخطاب في حق غيره، فالقياس تعدية الحكم، وهنا لم يعد حكم، وإنما ثبت الحكم في حق الجميع ثبوتًا واحدًا، بل هو مشبه بتعدية الخطاب بالحكم، لا نفس الحكم.

٦/٤٣٩ / وعلى كل قول، فالدلالة من صيغ الجمع المذكور متوجهة، كما أنها متوجهة بلا تردد من صيغة: «من» و «أهل» و «الناس» ونحو ذلك.

واعلم أن هنا دلالة ثانية، وهي دلالة العموم المعنوي، وهي أقوى من دلالة العموم اللفظي؛ وذلك أن قوله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧]، وقد فسرت «القرة» بالنظر وغيره، فيقتضي أن النظر جزاء على عملهم، والرجال والنساء مشتركون في العمل الذي استحق به جنس الرجال الجنة، فإن العمل الذي يمتاز به الرجال كالإمارة والنبوة - عند الجمهور ونحو ذلك - لم تنحصر الرؤية فيه، بل يدخل في الرؤية من الرجال من لم يعمل عملاً يختص الرجال، بل اقتصر علي ما فرض عليه: من الصلاة، والزكاة، وغيرهما، وهذا مشترك بين الفريقين.

وكذلك قوله: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ . عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ﴾ [المطففين: ٢٢، ٢٣] أن البر سبب هذا الثواب، والبر مشترك بين الصنفين، وكذلك كل ما علق به الرؤية من اسم الإيمان ونحوه، يقتضي أنه هو السبب في ذلك، فيعم الطائفتين.

وبهذا الوجه احتج الأئمة: أن الكفار لا يرون ربهم. فقالوا: لما حجب الكفار بالسخط دل على أن المؤمنين يرون بالرضى، ومعلوم أن المؤمنين فارقوا الكفار فيما استحقوا به السخط والحجاب، وشاركوا المؤمنين / فيما استحقوا به الرضوان والمعينة، فثبتت الرؤية في حقهم باعتبار الطرد واعتبار العكس، وهذا باب واسع إن لم نقطعه لم ينقطع. فإن قيل: دلالة العموم ضعيفة، فإنه قد قيل: أكثر العمومات مخصوصة، وقيل: ما ثم لفظ عام إلا قوله: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٠١]، ومن الناس من أنكر دلالة العموم رأساً.

قلنا: أما دلالة العموم المعنوي العقلي، فما أنكره أحد من الأمة فيما أعلمه، بل ولا من العقلاء، ولا يمكن إنكارها، اللهم إلا أن يكون في «أهل الظاهر الصرف»، الذين لا يلحظون المعاني كحال من ينكرها، لكن هؤلاء لا ينكرون عموم الألفاظ، بل هو عندهم العمدة، ولا ينكرون عموم معاني الألفاظ العامة، وإلا قد ينكرون كون عموم المعاني

المجردة مفهوماً من خطاب الغير .

فما علمنا أحداً جمع بين إنكار العمومين ؛ اللفظي والمعنوي ، ونحن قد قررنا العموم بهما جميعاً ، فيبقى محل وفاق مع العموم المعنوي ، لا يمكن إنكاره في الجملة ، ومن أنكره سد على نفسه إثبات حكم الأشياء الكثيرة ، بل سد على عقله أخص أوصافه ، وهو القضاء بالكلية العامة ، ونحن قد قررنا العموم من هذا الوجه ، بل قد اختلف الناس في مثل هذا العموم : هل يجوز تخصيصه؟ على قولين مشهورين .

وأما العموم اللفظي ، فما أنكره - أيضاً - إمام ولا طائفة لها مذهب مستقر/ في العلم ، ولا كان في القرون الثلاثة من ينكره ، وإنما حدث إنكاره بعد المائة الثانية وظهر بعد المائة الثالثة ، وأكبر سبب إنكاره إما من المجوزين للعفو من أهل السنة ، ومن أهل المرجئة من ضاق عطنه لما ناظره الوعيدية بعموم آيات الوعيد وأحاديثه ، فاضطره ذلك إلى أن جحد العموم في اللغة والشرع ، فكانوا فيما فروا إليه من هذا الجحد كالمستجير من الرمضاء بالنار .

ولو اهتمدوا للجواب السديد للوعيدية : من أن الوعيد في آية وإن كان عاماً مطلقاً ، فقد خصص وقيد في آية أخرى - جرياً على السنن المستقيمة - أولى بجواز العفو عن المتوعد وإن كان معينا ، تقييداً للوعيد المطلق ، وغير ذلك من الأجوبة ، وليس هذا موضع تقرير ذلك ، فإن الناس قد قرروا العموم بما يضيق هذا الموضع عن ذكره .

وإن كان قد يقال : بل العلم بحصول العموم من صيغه ضروري من اللغة والشرع والعرف ، والمنكرون له فرقة قليلة يجوز عليهم جحد الضروريات ، أو سلب معرفتها ، كما جاز على من جحد العلم بموجب الأخبار المتواترة وغير ذلك من المعالم الضرورية .

وأما من سلم أن العموم ثابت ، وأنه حجة ، وقال : هو ضعيف ، أو أكثر العمومات مخصوصة ، وأنه ما من عموم محفوظ إلا كلمة أو كلمات .

فيقال له أولاً : هذا سؤال لا توجيه له ، فإن هذا القدر الذي ذكرته لا يخلو إما أن يكون مانعاً من الاستدلال بالعموم أو لا يكون ، فإن كان مانعاً / فهو مذهب منكري العموم من الواقفة والمخصصة ، وهو مذهب سخي ف لم ينتسب إليه . وإن لم يكن مانعاً من الاستدلال فهذا كلام ضائع غايته أن يقال : دلالة العموم أضعف من غيره من الظواهر وهذا لا يقر ، فإنه ما لم يقيم الدليل المخصص وجب العمل بالعام .

ثم يقال له ثانياً : من الذي سلم لكم أن العموم المجرد الذي لم يظهر له مخصص دليل ضعيف؟ أم من الذي سلم أن أكثر العمومات مخصوصة؟ أم من الذي يقول: ما من

عموم إلا قد خصص إلا قوله: ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾؟ [الأنعام: ١٠١] ، فإن هذا الكلام ، وإن كان قد يطلقه بعض السادات من المتفقهة وقد يوجد في كلام بعض المتكلمين في أصول الفقه ، فإنه من أكذب الكلام وأفسده .

والظن بمن قاله أولاً : إنه إنما عني أن العموم من لفظ «كل شيء» مخصوص إلا في مواضع قليلة ، كما في قوله: ﴿تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأحقاف: ٢٥] ، ﴿وَأَوْتَيْتُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٢٣] ، ﴿فَتَحْنَأُ عَلَيْهِمْ أَبْوَابُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٤٤] ، وإلا فأني عاقل يدعى هذا في جميع صيغ العموم في الكتاب والسنة ، وفي سائر كتب الله وكلام أنبيائه ، وسائر كلام الأمم عربهم وعجمهم .

وأنت إذا قرأت القرآن من أوله إلى آخره ، وجدت غالب عموماته محفوظة ، لا مخصوصة ، سواء عنت عموم الجميع لأفراده ، أو عموم الكل لأجزائه أو عموم الكل لجزئياته ، فإذا اعتبرت قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢] ، فهل تجد أحداً من العالمين ليس الله ربه؟ ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤] ، فهل في يوم الدين شيء لا يملكه / الله؟ ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧] ، فهل في المغضوب عليهم والضالين أحد لا يجنب حاله التي كان بها مغضوباً عليه أو ضالاً؟ ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ . الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [البقرة: ٢ ، ٣] ، فهل في هؤلاء المتقين أحد لم يهتد بهذا الكتاب؟ ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [البقرة: ٤] ، هل فيما أنزل الله ما لم يؤمن به المؤمنون لا عموماً ولا خصوصاً؟ ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٥] ، هل خرج أحد من هؤلاء المتقين عن الهدى في الدنيا ، وعن الفلاح في الآخرة؟

ثم قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [البقرة: ٦] قيل: هو عام مخصوص ، وقيل: هو لتعريف العهد فلا تخصيص فيه ، فإن التخصيص فرع على ثبوت عموم اللفظ ، ومن هنا يغلط كثير من الغالطين ، يعتقدون أن اللفظ عام ، ثم يعتقدون أنه قد خصص منه ، ولو أمتعوا النظر لعلوموا من أول الأمر أن الذي أخرجوه لم يكن اللفظ شاملاً له ، ففرق بين شروط العموم وموانعه ، وبين شروط دخول المعنى في إرادة المتكلم وموانعه .

ثم قوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أليس هو عاماً لمن عاد الضمير إليه عموماً محفوظاً؟ ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ﴾ [البقرة: ٧] أليس هو عاماً في القلوب وفي السمع وفي الأبصار وفي المضاف إليه هذه الصفة عموماً ، لم يدخله تخصيص؟ وكذلك ﴿وَلَهُمْ﴾ ، وكذلك في سائر الآيات إذا تأملت إلى قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾

اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴿البقرة: ٢١﴾ ، فمن الذين خرجوا من هذا العموم الثاني فلم يخلقهم الله له؟ وهذا باب واسع .

٦/٤٤٤ / وإن مشيت على آيات القرآن كما تلقن الصبيان وجدت الأمر كذلك ، فإنه - سبحانه - قال : ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ . مَلِكِ النَّاسِ . إِلَهِ النَّاسِ﴾ ، فأَيُّ ناسٍ ليس الله ربهم؟ أم ليس ملكهم؟ أم ليس إلههم؟ ثم قوله : ﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾ [الناس: ١-٤] إن كان المسمى واحداً فلا عموم فيه ، وإن كان جنساً فهو عام ، فأَيُّ وسواس خناس لا يستعاض بالله منه؟

وكذلك قوله : ﴿بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ أي جزء من «الفلق» أم أي فلَقٍ ليس الله ربه؟ ﴿مِنْ شَرِّ مَا خُلِقَ﴾ أي شر من المخلوق لا يستعاض منه؟ ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ﴾ أي نفَاثَةٍ في العقد لا يستعاض منها؟ وكذلك قوله : ﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ﴾ [الفلق: ١-٥] مع أن عموم هذا فيه بحث دقيق ليس هذا موضعه .

ثم سورة الإخلاص فيها أربع عمومات : ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ ، فإنه يعم جميع أنواع الولادة ، وكذلك ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ ، وكذلك ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٣ ، ٤] فإنها تعم كل أحد وكل ما يدخل في مسمى الكفو ، فهل في شيء من هذا خصوص؟

ومن هذا الباب كلمة الإخلاص ، التي هي أشهر عند أهل الإسلام من كل كلام ، وهي كلمة «لا إله إلا الله» ، فهل دخل هذا العموم خصوص قط؟

٦/٤٤٥ فالذي يقول بعد هذا: ما من عام إلا وقد خص إلا كذا وكذا ، إما في غاية الجهل وإما في غاية التقصير في العبارة ؛ فإن الذي أظنه أنه إنما عني : « من الكلمات التي تعم كل شيء » مع أن هذا الكلام ليس بمستقيم ، وإن فسر / بهذا ؛ لكنه أساء في التعبير أيضاً ، فإن الكلمة العامة ليس معناها أنها تعم كل شيء ، وإنما المقصود أن تعم ما دلت عليه ، أي : ما وضع اللفظ له ، وما من لفظ في الغالب إلا وهو أخص مما هو فوقه في العموم وأعم مما هو دونه في العموم والجميع يكون عاماً . ثم عامة كلام العرب وسائر الأمم إنما هو أسماء عامة ، والعموم اللفظي على وزان العموم العقلي وهو خاصية العقل ، الذي هو أول درجات التمييز بين الإنسان وبين البهائم .

فإن قيل : سلمنا أن ظاهر الكتاب والسنة يشمل النساء ، لكن هذا العموم مخصوص ؛ وذلك أن في حديث رؤية الله للرجال يوم الجمعة : « إن الرجال يرجعون إلى منازلهم ففتلقاهم نساؤهم فيقلن للرجل : لقد جئت وإن بك من الجمال أفضل مما فارقتنا عليه !

فيقول: إنا جالسنا اليوم ربنا الجبار، ويحقنا أن نقرب بمثل ما انقلبنا به^(١). وهذا دليل على أن النساء لم يشاركوهن في الرؤية، وإذا كان هذا في رؤية الجمعة، ففي رؤية الغداة والعشي أولى؛ لأن هذا أعلى من تلك ومن لم يصلح للرؤية في الأسبوع، فكيف يصلح للرؤية في كل يوم مرتين؟ وإذا انتفت رؤيتهن في هذين الوطنين، ولم يثبت أن الناس يرونه في غير هذين الوطنين، فقد ثبت أن العموم مخصوص منه النساء في هذين الوطنين، وما سواهما لم يثبت لا للرجال ولا للنساء، فلم يبق ما يدل على حصول الرؤية للنساء في موطن آخر، فإما أن يبقى مطلقاً عملاً بالأصل النافي، وإما أن ينفي عن هذين الوطنين ويتوقف فيما عداهما ولا يحتاج على ثبوتها فيه بتلك العمومات / لوجود التخصيصات فيها.

٦/٤٤٦

هذا غاية ما يمكن في تقرير هذا السؤال، ولولا أنه أورد على ما ذكرته لعدم توجهه. فنقول:

الجواب من وجوه متعددة وترتيبها الطبيعي يقتضى نوعاً من الترتيب، لكن أرتبها على وجه آخر ليكون أظهر في الفهم:

الأول:

أنا لو فرضنا أنه قد ثبت أن النساء لا يرينه في الوطنين المذكورين، لم يكن في ذلك ما ينفي رؤيتهن في غير هذين الوطنين، فيكون ما سوى هذين الوطنين لم يدل عليه الدليل الخاص لا بنفي ولا بإثبات، والدليل العام قد أثبت الرؤية في الحملة، والرؤية في غير هذين الوطنين لم ينفيها دليل، فيكون الدليل العام قد سلم عن معارضة الخاص فيجب العمل به، وهذا في غاية الوضوح.

فإن من قال: رأيت رجلاً، فقال آخر: لم تر أسود ولم تره في دمشق، لم تتناقض القضيتان، والخاص إذا لم يناقض مثله من العام لم يحز تخصيصه به، فلو كان قد دل دليل على أن النساء لا يرينه بحال؛ لكان هذا الخاص معارضاً لمثله من العام، أما إذا قيل: إنه دل على رؤية في محل مخصوص كيف ينفي بنفي جنس الرؤية؟ وكيف يكون سلب الخاص سلباً للعام؟

فإن قيل: لا رؤية لأهل الجنة إلا في هذين الوطنين، قيل: ما الذي دل على هذا؟ فإن قيل: لأن الأصل عدم ما سوى ذلك. قيل: العدم لا يحتاج به في الأخبار بإجماع

(١) الترمذي في صفة الجنة (٢٥٤٩)، وابن ماجه في الزهد (٤٣٣٦). وضعفه الألباني

العقلاء، بل من أخبر به كان قائلاً ما لا علم له به، ولو قيل / للرجل : هل في البلد الفلاني كذا، وفي المسجد الفلاني كذا؟ فقال: لا ؛ لأن الأصل عدمه، كان نافيًا ما ليس له به علم باتفاق العقلاء.

ولو قال الآخر: الذين يرون الله كل يوم مرتين هم النبيون فقط؛ لأن الأصل عدم رؤية غيرهم، ولهم من الخصوص ما لا يشركون فيه، كان هذا قولاً بلا علم - إذا سلم من أن يكون كذباً - وليس هنا مفهوم يتمسك به، كما في قوله: ﴿فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾ [النور: ٤].

فإن الرسول لم يقل: إن أهل الجنة لهم موطنان في الرؤية، حتي يقول ذلك بنفي ما سواهما، بل كلامه يدل على خلاف ذلك كما سنبينه، ولو فرضنا أنه يجوز الحكم باستصحاب الحال في مثل هذا، فإن العموم والقياس حجتان مقدمتان على الاستصحاب، أما العموم، فبإجماع الفقهاء. وأما القياس، فعند جماهيرهم.

ومعلوم أن العموم والقياس يقتضيان ثبوت الرؤية كما تقدم، فلا يجوز نفيها بالاستصحاب، وإن جار تخصيص ذلك بنقص عقل النساء، فينبغي أن يقال: «البله» و«أهل الجفاء» من الأعراب ونحوهم ممن يدخل الجنة لا يرى الله، فإنه لا ريب أن في النساء من هو أعقل من كثير من الرجال، حتى إن المرأة تكون شهادتها نصف شهادة الرجل، والمغفل ونحوه ترد شهادتهما بالكلية، وإن لم يكن مجنوناً، وقد قال النبي ﷺ: «كَمُلْ من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا أربع»^(١)، أكمل ممن لم يكمل من الرجال، ففي أي معقول تكون الرؤية للناقص دون الكامل؟!

٦/٤٤٨ / الجواب الثاني :

أن نقول: نفس الحديث المحتج به دل على أن لأهل الجنة رؤية في مواطن عديدة، فإنه قال: «وأعلى أهل الجنة منزلة من يرى الله كل يوم مرتين غُدُوَّةً وَعَشِيَّةً»^(٢)، فإذا كانت هذه للأعلى، فمفهومه أن الأدنى له دون ذلك، ولا يجوز أن يقصر ما دون ذلك علي «رؤية الجمعة»؛ لأنه لا دليل عليه، بل يجوز أن يراه بعضهم كل يوم مرة، وبعضهم كل يومين مرة، وبعضهم أكثر من ذلك والحكمة تقتضي ذلك، فإن «يوم الجمعة» يشترك

(١) البخاري في فضائل الصحابة (٣٧٦٩)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٣١/٧٠)، والترمذي في الأئمة (١٨٣٤)، وابن ماجه في الأئمة (٣٢٨٠)، وأحمد ٤/٣٩٤، ٤٠٩، كلهم عن أبي موسى الأشعري.

(٢) البخاري في الأنبياء (٣٤١١) ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٣١/٧٠).

فيه جميع الرجال من الأعلين والمتوسطين ومن دونهم، وكل يوم مرتين للأعلين، فالذين هم فوق الأذنين و دون الأعلين لابد أن يميزوا عمن دونهم، كما نقصوا عمن فوقهم.

الجواب الثالث :

أنه قد جاءت الأحاديث برؤية الله في غير هذين الوطنين، منها: ما رواه ابن ماجه في سننه والدارقطني في الرؤية عن الفضل بن عيسى الرقاشي، عن محمد بن المنكدر، عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «بيننا أهل الجنة في نعيمهم إذ سطع لهم نور، فرفعوا رؤوسهم، فإذا الرب - تبارك وتعالى - أشرف عليهم، فقال: السلام عليكم يا أهل الجنة، وهو قول الله: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَحِيمٍ﴾ [يس: ٥٨]، فلا يلتفتون إلى شيء مما هم فيه من النعيم ما دام الله بين أظهرهم حتى يحتجب عنهم، وتبقى فيهم بركته ونوره»^(١).

٦/٤٤٩ /ورويناه من طريق أخرى معروفة إلى سلمة بن شبيب: حدثنا بشر بن حجر، حدثنا عبد الله بن عبيد الله، عن محمد بن المنكدر، عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «بينما أهل الجنة في ملكهم ونيعيمهم إذ سطع لهم نور، فرفعوا رؤوسهم، فإذا الرب - تبارك وتعالى - قد أشرف عليهم من فوقهم، فيقول: السلام عليكم يا أهل الجنة، فذلك قوله تبارك وتعالى: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَحِيمٍ﴾، فينظرون إليه وينظر إليهم، فلا يلتفتون إلى شيء من الملك والنعيم حتى يحتجب عنهم»، قال: «فيبقى نوره وبركته عليهم وفي ديارهم»^(٢).

وهذه الطريق تنفي أن يكون قد تفرد به الفضل الرقاشي، وهذا الحديث بعمومه يقتضي أن جميعهم يرونه، لكن لم يستدل به ابتداء؛ لأن في إسناده مقالاً، والمقصود هنا أنه قد روى ذلك وهو ممكن ولا سبيل إلى دفعه في نفس الأمر، والعمومات الصحيحة تثبت جنس ما أثبت هذا الحديث.

وأيضاً، فالحديث الصحيح: «إذا دخل أهل الجنة الجنة نادى مناد: يا أهل الجنة، إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه، فيقولون: ما هو؟ ألم يبيض وجوهنا، ويثقل موازيننا، ويدخلنا الجنة، ويخرجنا من النار؟ فيكشف الحجاب فينظرون إليه، فما أعطاهم شيئاً أحب إليهم من النظر إليه»^(٣).

(١، ٢) ابن ماجه في المقدمة (١٨٤)، وابن عدي في الكامل ١٣/٦، ١٤. وضعفه الألباني.

(٣) مسلم في الإيمان (٢٩٧/١٨١) والترمذي في التفسير (٣١٠٥).

فهذا ليس هو نظر الجمعة؛ لأن هذا عند الدخول، ولم يكونوا ينتظرونه، ولا اجتمعوا لأجله، ونظر الجمعة يقدمون إليه من منازلهم ويجتمعون لأجله / كما جاءت به الأحاديث، وبين هذا التجلي وذاك فرق تدل عليه الأحاديث، ولا هذا التجلي من المرتين اللتين تختص بالأعاليين، بل هو عام لمن دخل الجنة كما دل عليه الحديث موافقاً لقوله: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ... أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ [يونس: ٢٦].

وأيضاً، فقد جاء موقوفاً على ابن عباس، وعن كعب الأحبار مرفوعاً إلى النبي ﷺ: «إنهم يرونه في كل يوم عيد».

وأيضاً، فقد ثبت بالنصوص المتواترة في عَرَصَاتِ القيامة قبل دخول الجنة أكثر من مرة، وهذا خارج عن المرتين، إلا أن يقال: وإن كان لم يقل: ولا في سؤال السائل ما يدل عليه فهو مبطل لحصره قطعاً، ومن أراد أن يحترز عنه يصوغ السؤال على غير ما تقدم، وإنما صغناه كما أورد علينا.

وأيضاً، فقد قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧] قال النبي ﷺ: «يقول الله: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»^(١)، فكيف يمكن أن يقال: إن من سوى الأعالي لا يرى الله قط إلا في الأسبوع مرة؟ ويقضي ذلك الدليل على ما قد أخفاه عن كل نفس، ونفى علمه من كل عين، وسمع، وقلب، وفرق بين عدم العلم، والعلم بالعدم، وبين عدم الدليل، والدليل على العدم، فإذا لم يكن مع الإنسان فيما سوى الموطن سوى عدم العلم وعدم الدليل، لم يكن ذلك مانعاً من موجب الدليل العام بالاضطرار وبالإجماع.

ونكتة الجواب الأول: أن النبي ﷺ إذا قال: إن أهل الجنة يرون الله - تعالى - وفسر به قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ إلى قوله: ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾، فأعلمنا بهذا أن أصحاب الجنة لهم «الزيادة» التي هي النظر إليه، وقد علمنا أن أهل الجنة وأصحاب الجنة منهم النساء المحسنات أكثر من الرجال. وقال لنا - مثلاً: يوم الجمعة يراه الرجال دون النساء، وقال لنا - أيضاً: لا يراه كل يوم مرتين إلا أعلى أهل الجنة، وفرضنا أن النساء لا يرينه بحال - كل يوم مرتين - ولا يوم الجمعة، ولا فيما سوى ذلك قط، وهذا وإن كان من وقف على هذا الكلام يعلم أنه لا خلاف بين العلماء، بل ولا بين العقلاء في أنه لا يدل على نفي جنس الرؤية، ولا يخص ذلك

(١) الدارمي في الرقائق ٢/ ٣٣٥ وأحمد ٢/ ٣١٣.

اللفظ العام ، ولا يقيد ذلك المطلق - فإنما رددت الكلام فيه للمنازعة فيه ، فلا يظن أنا أطلنا النفس فيه لحفائه ، بل لرده مع جلالة .

ولك أن تعبر عن هذا الجواب بعبارات ، إن شئت أن تقول : أحاديث الإثبات أثبتت رؤية مطلقة للرجال والنساء ، ونفى المقيد لا ينفي المطلق ، فلا يكون المطلق منفيًا ، فلا يجوز نفي موجه .

وإن شئت أن تقول : أحاديث الإثبات تعم الرجال والنساء ، وأحاديث النفي تنفي عن النساء ما علم أنه للرجال ، أو ما ثبت أن فيه الرؤية أو تنفي عن النساء الرؤية في المواطنين اللذين أخبروا بالرؤية فيهما ، لكن هذا سلب في حال مخصوص ، لم يتعرض لما سواه ، لا بنفي ولا بإثبات ، والمسلوب عنه لا يعارض العام .

٦/٤٥٢ / وإن شئت أن تقول : القضية الموجبة المطلقة لا يناقضها إلا سلب كلي ، وليس هذا سلبًا كليًا فلا يناقض ، ولا يجوز ترك موجب أحد الدليلين .

وإن شئت أن تقول : ليس في ذكر هذين المواطنين إلا عدم الإخبار بغيرهما ، وعدم الإخبار بثواب معين - من نظر أو غيره - لا يدل على عدمه ، كيف وهذا الثواب مما أخفاه الله ؟ وإذا كان عدم الإخبار لا يدل على عدمه ، والعموم اللفظي والمعنوي إما قاطع وإما ظاهر في دخول النساء ، لم يكن عدم الدليل مخصصًا للدليل - سواء كان ظاهرًا أو قاطعًا ، وكل هذا - كما أنه معلوم بالعقل الضروري - فهو مجمع عليه بين الأمة ، على ما هو مقرر عند العلماء في الأصول والفروع .

وإنما ينشأ الغلط من حيث يسمع السامع ما جاء في الأحاديث في الرؤية عامة مطلقة ، ويرى أحاديث آخر أخبرت برؤية مقيدة خاصة ، فيتوهم ألا وجود لتلك المطلقة العامة إلا في هذه المقيدة ، أو ينفي دلالة تلك العامة لهذا الاحتمال ، كرجل قال : كنت أدخل أصحابي داري وأكرمهم . ثم قال في موطن آخر : أدخلت داري فلانًا وفلانًا من أصحابي في اليوم الفلاني ، فمن ظن أن سائر أصحابه لم يدخلهم - لأنه لم يذكرهم في هذا الموطن - فقد غلط ، وقيل له : من أين لك أنه ما أدخلهم في وقت آخر؟ فإذا قال : يمكن أنه أدخلهم ، ويمكن أنه ما أدخلهم فأنا أفق ، قيل له : فقد قال : كنت أدخل أصحابي داري ، وهذا يعم جميع أصحابه .

٦/٤٥٣ / ونحن لا ننزع في أن اللفظ العام يحتمل الخصوص في الجملة مع عدم هذه القرينة ، فمع وجودها أؤكد ، لكن تنازع في الظهور فنقول : هذا الاحتمال المرجوح لا يمنع ظهور العموم كما تقدم ، فيكون العموم هو الظاهر - وإن كان ما سواه ممكنًا - وأما سائر الأجوبة ، ففي تقرير أن الرؤية تقع في غير هذين المواطنين .

الجواب الرابع :

أنا لو فرضنا أن حديث المرتين كل يوم يعارض ما قدمناه من النصوص الصحيحة العامة - لفظاً ومعنى - لما كان الواجب دفع دلالة تلك الأحاديث بمثل هذا الحديث؛ لما تقدم، أولاً : لما في إسناده من المقال؛ ولأنه يستلزم إخراج أكثر أفراد اللفظ العام بمثل هذا التخصيص، وهذا إما ممتنع وإما بعيد، ومستلزم تخصيص العلة بلا وجود مانع ولا فوات شرط، وهذا ممتنع عند الجمهور، أو من غير ظهور مانع، وهذا بعيد لا يصار إليه إلا بدليل قوي.

الجواب الخامس:

لو فرضنا أن لا رؤية إلا ما في هذين، فمن أين لنا أن النساء لا يرين الله فيهما جميعاً؟ وهب أنا سلمنا أنهن لا يرينه يوم الجمعة، فمن أين أنهن لا يرينه كل يوم مرتين؟ وقول القائل : هذه أعلى وتلك أدنى، فكيف يحرم الأدنى من يعطي الأعلى؟ فعنه أجوبة:

٦/٤٥٤

/ أحدها: أن الذين ميزوا برؤية كل يوم مرتين شركوا الباقين في رؤية يوم الجمعة، فصار لهم النوعان جميعاً، فإذا كان فضلهم بالنوعين جميعاً، فما المانع في أن بعض من دونهم يشركهم في الجمعة دون «رؤية الغداة والعشي»، والبعض الآخرون يشركونهم في «الغداة والعشي» دون «الجمعة»؟! ولا يكون من له الغداة والعشي دون الجمعة أعلى مطلقاً، وإنما الأعلى مطلقاً الذي له الجميع.

لكن قد يقال: يلزم على هذا أن يكون النساء أعلى ممن له الجمعة دون البردين من الرجال، فيقال: قد لا يلزم هذا، بل قد تكون الجمعة وحدها أفضل من البردين وحدهما.

وقد يقال: فهب أن الأمر كذلك. أكثر ما فيه تفضيل النساء على مفضول الرجال، وهذا الاحتمال وإن كان ممكناً، لكن يبعد أن تكون كل امرأة تدخل الجنة أفضل ممن لا يرى الله كل يوم مرتين، فإن ذلك مستلزم أن يكون مفضول النساء أفضل من مفضول الرجال، فيترك هذا الاحتمال ويقتصر على الذي قيل، وهو: أن الأعلى مطلقاً الذي له المراتن مع الجمعة، وإنما لزم هذا لأننا نتكلم بتقدير أن لا رؤية إلا هذين، ولا ريب أن هذا التقدير باطل قطعاً.

الوجه الثاني: أنه من أين لكم أن «الرؤية كل يوم مرتين» أفضل من «رؤية الجمعة»؟ نعم هي أكثر عدداً، لكن قد يفضل ذلك في الكيفية، فيكون أحد النوعين أكثر عدداً

والآخر أفضل نوعاً: كدينار وخمسة دراهم ، / ولا ريب أن هذا ممكن إمكانيًا قريباً؛ فإن الله يثيب عبده على: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [سورة الإخلاص] مع قلة حروفها بقدر ما يثيبه على ثلث القرآن.

وإذا كان الأمر كذلك، فيمكن في حق من حرم الأفضل في نوعه أن يعطى النوع المفضل وإن كثر عدده، سواء كان فاضل النوع أفضل مطلقاً، أو كانا متكافئين عند التقابل، وفي أحاديث المزيد ما يدل على هذا، فإنهم يرجعون إلى أهلهم وقد ازدادوا حسناً وجمالاً، فيقولون: إنا جالسنا اليوم ربنا الجبار، فيحق لنا أن نثقل بمثل ما انقلبنا به^(١). وفي حديث آخر: «فليسوا إلى شيء أحوج منهم إلى يوم الجمعة؛ ليزدادوا نظراً إلى ربهم، ويزدادوا كرامة»^(٢).

ومن تأمل سياق الأحاديث المتقدمة، علم أن التجلي يوم الجمعة له عندهم وقع عظيم، لا يوجد مثله في سائر الأيام، وهذا يقتضي أن هذا النوع أفضل من الرؤية الحاصلة كل يوم مرتين، وإن كانت تلك أكثر! فإذا منع النساء من هذا الفضل لم يلزم أن يمنعن مما دونه، وهذا بين لمن تأمله.

الوجه الثالث: هب أن رؤية الله كل يوم مرتين أفضل مطلقاً من رؤية الجمعة، فلا يلزم حرمانهن من الثواب المفضل حرمان ما فوقه مطلقاً، وذلك أن العبد قد يعمل عملاً فاضلاً يستحق به أجراً عظيماً، ولا يعمل ما هو دونه فلا يستحق ذلك الأجر، وما زال الله - سبحانه - يخص المفضولين من كل صنف بخصائص لا تكون للفاضلين، وهذا مستقر في الأشخاص من الأنبياء والصديقين وفي الأعمال.

ولو كان العمل الفاضل يحصل به جميع المفضل مطلقاً لما شرع المفضل في وقت، ٦/٤٥٦ فلا يلزم من إعطاء الأعلى إعطاء الأدنى مطلقاً، ولا يلزم منه منع الأعلى مطلقاً، فهذا ممكن إمكانيًا شرعياً في عامة الثوابات، ألا ترى أن الذين في الدرجات العلى من أهل الجنة لا يعطون الدرجات الأدنى، ثم لا يكون هذا نقصاً في حقهم، فإن الله - سبحانه - يرضى كل عبد بما آتاه، فجاز أن يكون قد أرضى النساء بأعلى الرؤية عن مجموع أعلاها وأدناها. والذي يؤيد هذا: أنه من الممكن أن تكون رؤية الجمعة جزاء على عمل الجمعة في الدنيا، ورؤية الغداة والعشي جزاء على عمل الغداة والعشي، فهذا ممكن في العقل، وإن لم يجئ به خبر، وإذا كان ممكناً لم يلزم من منعهن «رؤية الجمعة» لعدم المقتضى فيهن منعهن «رؤية البردئين» مع قيام المقتضى فيهن.

(٢) سبق تخريجه ص ٢٤٧ .

(١) سبق تخريجه ص ٢٦٧ .

ومن الممكن في العقل أنهم إنما لم يشهدوا رؤية الجمعة؛ لأنه مجتمع الرجال والغيرة في الجنة؛ ألا ترى أن النبي ﷺ لما رأى الجنة، ورأى قصرًا وعلى بابه جارية، قال: «فأردت أن أدخل، فذكرت غيرتك»، فقال عمر: عليك أغار؟^(١)، والله أعلم بحقائق الأمور، فإذا كان كذلك، فهذا منتف في رؤية الغداة والعشي؛ لأن تلك الرؤية قد تحصل وأهل الجنة في منازلهم.

ثم هذا من الممكن أن الرؤية جزاء العمل، فإنه قد جاء في الأخبار ما يدل على أن الرؤية يوم الجمعة ثواب شهود الجمعة، بدليل أن فيها يكونون في / الدنو منه على مقدار مسارعته إلى الجمعة. وتفاوت الثواب بتفاوت العمل دليل على أنه مسبب عنه، وبدليل أنه مذكور في غير حديث أنه يكون بمقدار انصرافهم من صلاة الجمعة في الدنيا.

وموافقة الثواب للعمل في وقته، وفي قدره حتى يصير جزاء وفاقا يقتضى أن العمل سببه، وبدليل أن ذلك مذكور في فضل يوم الجمعة في الدنيا والآخرة، فعلم أن ارتباط ثوابه في الآخرة بعمله في الدنيا، وبدليل أن فيه عند منصرف الناس من الجمعة رجوع الصالحين إلى منازلهم، ورجوع الأنبياء والصديقين والشهداء إلى ربهم.

وهذا مناسب لحالهم في الدنيا، فإن الصالح إذا انقضت الجمعة اشتغل بما أبيح له في الدنيا، وأولئك اشتغلوا بالتقرب إليه بالنوافل، فكانوا متقربين إليه في الدنيا بعد الجمعة فقتربوا منه بعد الجمعة في الآخرة، وهذه المناسبة الظاهرة المشهود لها بالاعتبار تقتضي أن ذلك التجلي ثواب أعمالهم يوم الجمعة، وإذا كان كذلك فانتفاء الرؤية في حق النساء لعدم شهودهن الجمعة؛ ولهذا روى أنهم يرينه في العيد كما شرع لهن شهود العيد.

فإن قيل: ما ذكرتموه من هذه الزيادة أمر غريب، والأحاديث المشهورة المجمع عليها ليس فيها هذه الزيادة فلا يجوز الاعتماد عليها، والناس كلهم قد سمعوا أحاديث الرؤية يوم الجمعة ولم يسمعوا هذه الزيادة.

/ قلنا: قد تقدم الجواب عن ذلك بما ذكرناه من طرق الحديث وحال أصله وزيادته، وبيننا أن الزيادة لا ينقص حكمها في الرؤية عن حكم أصل الحديث نقصًا يمنع إلحاقها به، بل هي إما مكافئة أو قريية أو فوق، وأجبنا عما قيل هنا وما لم يقل.

فإن قيل: فقد كن المؤمنات يشهدن صلاة الجمعة مع رسول الله ﷺ، فعلى قياس

(١) البخاري في فضائل الصحابة (٣٦٧٩، ٣٦٨٠)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٣٩٤/٢٠، ٢٣٩٥/٢١)، وأحمد ٣٣٩/٢، ٣٠٩/٣، كلهم عن جابر وأبي هريرة، وابن ماجه في المقدمة (١٠٧) عن أبي هريرة.

هذا، ينبغي لمن شهد الجمعة من النساء أن يشهدن يوم المزيد في الجنة.

قلنا: ما كان يشهد الجمعة والجماعة من النساء إلا أقلهن؛ لأن النبي ﷺ قال: « لا تمنعوا إماء الله مساجد الله، وبيوتهن خير لهن» متفق عليه^(١). وقال: « صلاة إحداكن في مَحْدَعِهَا أفضل من صلاتها في حجرتها، وصلاتها في حجرتها أفضل من صلاتها في دارها، وصلاتها في دارها أفضل من صلاتها في مسجد قومها، وصلاتها في مسجد قومها أفضل من صلاتها معي » ، أو قال : « خلفي » رواه أبو داود^(٢)، فقد أخبر المؤمنات: أن صلاتهن في البيوت أفضل لهن من شهود الجمعة والجماعة إلا العيد ، فإنه أمرهن بالخروج فيه، ولعله - والله أعلم - لأسباب:

أحدها: أنه في السنة مرتين فقبل، بخلاف الجمعة والجماعة.

الثاني: أنه ليس له بدل، خلاف الجمعة والجماعة ، فإن صلاتها في بيتها الظهر هو جمعتهما.

/ الثالث: أنه خروج إلى الصحراء لذكر الله، فهو شبيه بالحج من بعض الوجوه؛ ولهذا ٦/٤٥٩ كان العيد الأكبر في موسم الحج موقفة للحجيج، ومعلوم أن الصحابييات إذا علمن أن صلاتهن في بيوتهن أفضل لم يتفق أكثرهن على ترك الأفضل ، فإن ذلك يلزم أن يكون أفضل القرون على المفضول من الأعمال.

فإن قيل : هذا التفضيل إنما وقع في حق من بعد الصحابييات لما أحدث النساء ما أحدثن، ولأن من بعد الرسول من الأئمة لا يساويه، فأما الصحابييات فصلاتهن خلف النبي ﷺ كانت أفضل ، ويكون هذا الخطاب عامًا خرج منه القرن الأول، فإن تخصيص العموم جائز.

قلنا: هذا خلاف ما علم بالاضطرار من لغة العرب والعجم، وخلاف ما علم بالاضطرار من دين المسلمين، وخلاف ما فطر الله عليه العقلاء، وخلاف ما أجمع المسلمون عليه؛ وذلك لأن قوله: « لا تمنعوا إماء الله مساجد الله ، وبيوتهن خير لهن» قد أجمع المسلمون على أن الحاضرين تحقق دخولهم فيه ، واختلفوا في القرن الثاني والثالث :- هل يدخلون بمطلق الخطاب أم بدليل منفصل؟ فيه قولان، فأما دخول الغائب دون الحاضر فممتنع باتفاق.

(١) البخاري في الجمعة (٩٠٠)، ومسلم في الصلاة (١٣٦/٤٤٢)، كلاهما عن ابن عمر.

(٢) أبو داود في الصلاة (٥٧٠).

ثم اللغة تحيله، فإن قوله: « لا تمنعوا إماء الله » لا ريب أنه خطاب للصحابة - رضي الله عنهم - ابتداء ، فكيف تحيل اللغة ألا يدخلوا فيه، ويدخل فيه من بعدهم ؟ أهل اللغة لا يشكون أن هذا ممتنع.

٦/٤٦٠ / ثم قد علمنا بالاضطرار أن أوامر القرآن والسنة شملت الصحابة ثم من بعدهم، وقد يقال أو يتوهم في بعضها : أنها شملتهم دون من بعدهم، فأما اختصاص من بعدهم بالأوامر الخطابية دونهم، فهذا لا وجود له.

وأما مخالفته للفظر ، فما من سليم العقل يعرض عليه هذا إلا أنكره أشد الإنكار، ثم هب هذا أمكن في قوله: « لا تمنعوا إماء الله مساجد الله »^(١)، فكيف بقوله: « صلاة إحدائكن في مسجد قومها أفضل من صلاتها معي » أو : « خلفي »^(٢) ؟ أليس نصاً في صلاتهن في بيوتهن في مسجد النبي ﷺ خلفه؟ وصلى الله على محمد.

(١، ٢) سبق تخريجهما ص ٢٧٥ .

ما هو لقاء الله سبحانه الذي وصف بظنه الخاشعين بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتُفَتُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ٤٦]، وأمر بعلمه المتقين في قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَكُمْ مُلَاقُوهُ﴾ [البقرة: ٢٢٣]، وبشر بالإقرار به عند المصيبة الصابرين، وأشار إلى إتيان أجله للراجلين بقوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ﴾ [العنكبوت: ٥]، واشتهر ذكره في غير حديث من كلام سيد المرسلين، كقوله في دعائه: «لِقَاؤُكَ حَقٌّ»^(١)، وقوله: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه»^(٢) الحديث؟

وهل يصح قول بعض المفسرين من أنه متعلق بمحذوف تقديره : جزاء ربهم أو نحوه، بكونه مما لا يصح أن يضاف إلى الله - تعالى - حقيقة ، فيستحيل ظاهره ويكون المراد منه غير ظاهره ، ويصار فيه إلى تأويل معين ؟ أم هو مستغن عن ذلك لجوازه في نفسه ؟ وكيف يتصور منا محبة من لا نعرفه، ولا نطلع عليه ؟ أم كيف يتأتى شوقه وحنين القلوب إليه، وإيثاره على ما سواه، مما هو عندنا معروف ولقلوبنا مألوف ؟ ولنا به منفعة عاجلة، ولذة حاصلية. / وقد قالت عائشة - رضي الله عنها : كراهية الموت، وكلنا نكره الموت . فرد عليه السلام قولها بما تضمنه الحديث : « من رؤية المؤمن ما له عند الله من النعيم، فأحب الله لقاءه »^(٣) الحديث.

وقد يعترض على هذا سؤال، وهو أنه إذا كان حبه اللقاء لما رآه من النعيم، فالمحبة حيثئذ للنعيم العائد إليه ، لا لمجرد لقاء الله - تعالى - فكيف يجازي عليه بحب الله - تعالى - لقاءه ومحبه غير خالصة، وإنما يتقبل الله من الأعمال ما كان خالصاً ؟

بينوا لنا هذه الأمور البيان الشافي ، بالجواب الصحيح الكافي، طلباً للأجر الوافي إن شاء الله تعالى؟

فأجاب - رضي الله عنه وأرضاه:

الحمد لله ، «أما اللقاء» فقد فسرهُ طائفة من السلف والخلف بما يتضمن المعاينة

(١) البخاري في التوحيد (٧٣٨٥) ومسلم في صلاة المسافرين (١٩٩/٧٦٩) .

(٢) البخاري في الرقاق (٦٥٠٨) ، ومسلم في الذكر والدعاء (١٨/٢٦٨٦) ، كلاهما عن أبي موسى .

(٣) البخاري في الرقاق (٦٥٠٧) ، ومسلم في الذكر والدعاء (١٥/٢٦٨٤) .

والمشاهدة بعد السلوك والمسير، وقالوا: إن لقاء الله يتضمن رؤيته - سبحانه وتعالى - واحتجوا بآيات «اللقاء» على من أنكر رؤية الله في الآخرة من الجهمية، كالمعتزلة وغيرهم. وروى عن عبد الله بن المبارك أنه قال في قوله: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾ [الكهف: ١١٠]: ولا يرائي، أو قال: ولا يخبر به أحداً، وجعلوا اللقاء يتضمن معنيين: أحدهما: السير إلى الملك، والثاني: معاينته، كما قال: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ / كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦]، فذكر أنه يكدح إلى الله فيلاقيه والكدح إليه يتضمن السلوك والسير إليه، واللقاء يعقبهما.

٦/٤٦٣

وأما المعاينة من غير مسير إليه - كمعاينة الشمس والقمر - فلا يسمى لقاء. وقد يراد باللقاء الوصول إلى الشيء والوصول إلى الشيء بحسبه.

ومن دليل ذلك أن الله تعالى قد قال: ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُرُوا﴾ [الأنفال: ٤٥]، و﴿إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ﴾ [الأنفال: ١٥]، وقال: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾ الآية [البقرة: ١٤]، وقال: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بِعَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٧٦]، وقال: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّمِيتُمْ فِي أُعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أُعْيُنِهِمْ﴾ [الأنفال: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِتْنِيتِ الثَّقَاتِ فِتْنَةً تَقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَهُمْ رَأْيَ الْعَيْنِ﴾ [آل عمران: ١٣].

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا»^(١)، وفي الصحيحين عن أبي هريرة أنه لقي النبي ﷺ في طريق المدينة وهو جنب، فانفتل فذهب فاغتسل، ففقدته النبي ﷺ، فلما جاء قال: «أين كنت؟» قال: يا رسول الله، لقيتني وأنا جنب، فكرهت أن أجالسك حتى أغتسل. فقال رسول الله ﷺ: «سبحان الله! إن المؤمن لا ينجس»^(٢) وفي لفظ: / لقيت رسول الله ﷺ، وهو في مسلم عن حذيفة - أيضاً - أن رسول الله ﷺ لقيه وهو جنب، فذكر معناه^(٣).

٦/٤٦٤

وفي صحيح مسلم عن بريدة أن النبي ﷺ كان إذا أمر أميراً على جيش أو سرية،

(١) البخاري في الجهاد (٢٩٦٦، ٣٠٢٥)، ومسلم في الجهاد (١٧٤٢/ ٢٠).

(٢) البخاري في الغسل (٢٨٣، ٢٨٥)، ومسلم في الحيض (٣٧١/ ١١٥).

(٣) مسلم في الحيض (٣٧٢/ ١١٦).

أوصاه في خاصة نفسه بتقوى الله ، ومن معه من المسلمين خيراً، ثم قال: «اغزوا باسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليداً، وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال» (١) الحديث.

وفي حديث عتبة بن عبيد قال: قال رسول الله ﷺ: «القتلى ثلاثة: رجل مؤمن جاهد بماله ونفسه في سبيل الله، حتى إذا لقي عدواً قاتلهم حتى يقتل، فذلك الشهيد المفتخر في خيمة الله تحت ظل عرشه، لا يفعله إلا النبيون بدرجة النبوة، ورجل قرف على نفسه من الذنوب والخطايا جاهد بنفسه وماله في سبيل الله، حتى إذا لقي العدو قاتل حتى قتل، فممصصة تحت ذنوبه وخطاياها، إن السيف محاء للخطايا، وأدخل من أي أبواب الجنة شاء، فإن لها ثمانية أبواب، ولجنهم سبعة أبواب، وبعضها أفضل من بعض، ورجل منافق جاهد بنفسه وماله حتى إذا لقي العدو قاتل في سبيل الله حتى قتل، فإن ذلك في النار، إن السيف لا يححو النفاق» رواه أحمد وأبو حاتم في صحيحه (٢)، ومثل هذا كثير في كلام العرب كقول الشاعر:

متى ما تلقى فرد من ترجو وأبو السنل (٣)

/ ويستعمل «اللقاء» في لقاء العدو، ولقاء الولي، ولقاء المحبوب، ولقاء المكروه، ٦/٤٦٥ وقد يستعمل فيما يتضمن مباشرة الملاقاة ومماسه مع اللذة والألم، كما قال: «إذا التقا الختانان وجب الغسل» (٤)، وفي الحديث الصحيح: «إذا قعد بين شعبها الأربع والترق الختانان فقد وجب الغسل» (٥).

ومن نحو هذا قوله: ﴿إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ﴾ [الجمعة: ٨] وقوله: ﴿فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ [الإنسان: ١١]، وقوله: ﴿أُولَئِكَ يَجْزُونَ الْعُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلْقُونَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا﴾ [الفرقان: ٧٥]، ويقال: فلان لقي خيراً ولقي

(١) مسلم في الجهاد (٣/١٧٣١).

(٢) أحمد ٤/١٨٥، وابن حبان في صحيحه (٤٦٤٤).

وقوله: «قرف على نفسه»: أي: كسيها. «فمصصة»: أي: مطهرة، من قولهم: يَمْصِصُ الإناء الماء: إذا رُقِقَ الماء فيه وحرك حتى يطهر، وأصله من الموص وهو الغسل. انظر: النهاية ٤/٤٥، ولسان العرب، مادة «فمصص».

(٣) هكذا بالأصل، ولم نثر عليه فيما تحت أيدينا من المصادر.

(٤) ابن ماجه في الطهارة (٦٠٨) عن عائشة، والبيهقي في السنن في الطهارة ١/١٦٣ عن أبي هريرة.

(٥) البخاري في الغسل (٢٩١)، ومسلم في الخيض (٨٧/٣٤٨)، وأبو داود في الطهارة (٢١٦)، والنسائي في الطهارة (١٩١)، وابن ماجه في الطهارة (٦١٠)، كلهم عن أبي هريرة.

شراً، وقد قال النبي ﷺ: «إنكم ستلقون بعدي أثرة، فاصبروا حتى تلقوني على الحوض» (١).

وقد يقال: إن «اللقاء» في مثل هذا يتضمن معنى المشاهدة، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ﴾ [آل عمران: ١٤٣]؛ لأن الإنسان يشاهد بنفسه هذه الأمور، وقد قيل: إن الموت نفسه يشهد ويرى ظاهراً. وقيل: المرئي أسبابه.

وقد جاء في الكتاب والسنة ألفاظ من نحو «لقاء الله»، كقوله: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ٩٤]، وقوله: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبَّنَا﴾ [الأنعام: ٣٠]، وقوله: ﴿وَعَرَضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الكهف: ٤٨]، وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبَلِصَادٍ﴾ [الفجر: ١٤]، وقوله: ﴿إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ﴾ [النور: ٣٩]، وقوله: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ. إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾ [القيامة: ١١، ١٢]، وقوله: ﴿إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى﴾ [العلق: ٨]، وقوله: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦]، وقوله: ﴿إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [غافر: ٣]، وقوله: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ. ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ [الغاشية: ٢٥، ٢٦].

٦/٤٦٦

لكن يلزم هؤلاء مسألة تكلم الناس فيها، وهي أن القرآن قد أخبر أنه يلقاه الكفار ويلقاه المؤمنون، كما قال: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ. فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ. فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا. وَنَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا. وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ. فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا. وَيَصْلَى سَعِيرًا﴾ [الانشقاق: ٦-١٢].

وقد تنازع الناس في الكفار: هل يرون ربهم مرة ثم يحتجب عنهم، أم لا يرونه بحال، تمسكاً بظاهر قوله: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥]، ولأن الرؤية أعظم الكرامة والنعيم، والكفار لا حظ لهم في ذلك.

وقالت طوائف من أهل الحديث والتصوف: بل يرونه ثم يحتجب، كما دل على ذلك الأحاديث الصحيحة التي في الصحيح وغيره، من حديث أبي سعيد وأبي هريرة وغيرهما مع موافقة ظاهر القرآن، قالوا: وقوله: ﴿لَمَحْجُوبُونَ﴾ يشعر بأنهم عاينوا ثم حجبوا، ودليل ذلك قوله: ﴿إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾، فعلم أن الحجب كان يومئذ. فيشعر بأنه يختص بذلك اليوم، وذلك إنما هو في الحجب بعد الرؤية، فأما المنع

(١) البخاري في الفتن (٧٠٥٧)، ومسلم في الزكاة (١٣٢/١-٥٩)، والترمذي في الفتن (٢١٨٩)، والنسائي في آداب القضاء (٥٣٨٣)، كلهم عن أنس.

الدائم من الرؤية فلا يزال في الدنيا والآخرة،/ قالوا: ورؤية الكفار ليست كرامة ولا نعيماً؛ إذ «اللقاء» ينقسم إلى لقاء على وجه الإكرام، ولقاء على وجه العذاب، فهكذا الرؤية التي يتضمنها اللقاء.

ومما احتجوا به الحديث الصحيح - حديث سفيان بن عيينة - : حدثنا سهيل بن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هريرة: «هل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر؟» وقد روى مسلم وأبو داود وأحمد في المسند وابن خزيمة في التوحيد وغيره قال: قالوا: يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال: «هل تضارون في رؤية الشمس ليست في سحابة؟» قالوا: لا. قال: «والذي نفسي بيده، لا تضارون في رؤية ربكم إلا كما تضارون في رؤية أحدهما»، قال: «يلقى العبد فيقول: أي فل، ألم أكرمك وأسودك^(١)، وأزوجك، وأسخر لك الخيل والإبل، وأدرك ترأس وتربع؟ فيقول: بلى يا رب» قال: «فيقول: فظننت أنك ملاقي. فيقول: لا. فيقول: فإني أنساك كما نسيتي، ثم قال: يلقي الثاني فيقول له: مثل ذلك، فيقول: أي رب، آمنت بك وبكتابك وبرسلك، وصليت وصمت وتصدق، ورثى بخير ما استطاع. فيقول: ها هنا إذا». قال: «ثم يقال: الآن نبعث شاهداً عليك، ويتفكر في نفسه من ذا الذي يشهد على؟ فيختم على فيه، ويقال لفخذه: انطقي، فتنتطق فخذه ولحمه وعظامه بما كان يعمل، فذلك المنافق ليعذر من نفسه، وذلك الذي يسخط الله عليه»، وتام الحديث قال: «ثم ينادي مناد: ألا تتبع كل أمة ما كانت تعبد، فتتبع الشياطين والصليب أولياؤهم إلى جهنم، وبقينا أيها المؤمنون فيأتينا ربنا، فيقول: ما هؤلاء؟ فنقول: من عباد الله المؤمنين، آمنا بربنا ولم نشرك به شيئاً، وهو ربنا - تبارك وتعالى - وهو / يأتينا وهو يشتنا، وهو ذا مقامنا حتى يأتينا ربنا، فيقول: أنا ربكم، فيقول: انطلقوا، فننتطق حتى نأتي الجسر، وعليه كلاليب من نار تخطف، عند ذلك حلت الشفاعة لي، اللهم سلّم، اللهم سلّم، فإذا جاوزوا الجسر، فكل من أنفق زوجاً من المال في سبيل الله مما يملك، فتكلمه خزنة الجنة تقول: يا عبد الله، يا مسلم هذا خير»، فقال أبو بكر - رضي الله عنه - : يا رسول الله، إن هذا عبد لا تَوَى^(٢) عليه، يدع باباً ويلج من آخر؟ فضرب كتفه وقال: «إني أرجو أن تكون منهم»^(٣). قال سفيان ابن عيينة : حفظته أنا وروح بن القاسم، وردده علينا مرتين أو ثلاثاً.

وسئل سفيان عن قوله: «ترأس وتربع» فقال: كان الرجل إذا كان رأس القوم كان له

(١) أي : جعلتك رئيساً على قومك مقدماً عليهم. انظر : النهاية ٤١٧/٢.

(٢) أي : لا ضياع ولا خسارة، وهو من التَوَى، أي : الهلاك. انظر : النهاية ٢٠١/١.

(٣) مسلم في الزهد والرقائق (١٦/٢٩٦٨) بنحوه.

الرباع وهو الربع . وقال النبي ﷺ لعدي بن حاتم، حيث قال: يا رسول الله ، إني على دين قال: «أنا أعلم بدينك منك ، إنك مستحل الرباع ولا يحل لك»^(١).

وهذا الحديث معناه في الصحيحين وغيرهما من وجوه متعددة، يصدق بعضها بعضاً، وفيه أنه سئل عن الرؤية فأجاب بثبوتها، ثم أتبع ذلك بتفسيره وذكر أنه يلقاه العبد، والمنافق ، وأنه يخاطبهم.

وفي حديث أبي سعيد وأبي هريرة: أنه يتجلى لهم في القيامة مرة للمؤمنين والمنافقين، بعد ما تجلى لهم أول مرة، ويسجد المؤمنون دون المنافقين^(٢). وقد بسط الكلام على هذه المسألة في غير هذا الموضع.

٦/٤٦٩

/ وأما الجهمية من المعتزلة وغيرهم، فيمتنع على أصلهم لقاء الله؛ لأنه يمتنع عندهم رؤية الله في الدنيا والآخرة، وخالفوا بذلك ما تواترت به السنن عن النبي ﷺ.

وما اتفق عليه الصحابة وأئمة الإسلام من أن المؤمنين يرون ربهم في الآخرة، واحتجوا بحجج كثيرة عقلية ونقلية، قد بينا فسادها مبسوطاً، وذكرنا دلالة العقل والسمع على جواز الرؤية.

وهذه المسألة من الأصول التي كان يشتد تكبير السلف والأئمة على من خالف فيها، وصنفوا فيها مصنفات مشهورة.

والثاني: أن عندهم لا يتصور الكدح إليه، ولا العرّض عليه، ولا الوقوف عليه، ولا أن يحبه العبد ولا أن يجده، ولا أن يشار إليه، ولا أن يرجع إليه، ولا يؤوب إليه، إذ هذه الحروف تقتضي أن يكون حال العبد بالنسبة إليه في الآخرة - وبينهما فضل - يقتضي تقريباً إليه ودنوياً منه، وأن يكون حال العبد بالنسبة إليه مخالف لحاله في الدنيا، وهذا كله محال عندهم، فإنهم لا يقرون بأن الخالق مباين للمخلوق - كما اتفق السلف والأئمة، وصرحوا بأنه مباين للخلق، ليس داخلياً في المخلوقات، ولا المخلوقات داخلية فيه - بل تارة يجعلونه حالاً بذاته في كل مكان، وتارة يجعلون وجوده عين وجود المخلوقات، وتارة يصفونه بالأمور السلبية المحضة، مثل كونه غير مباين للعالم ولا حال فيه فهم بين أمرين:

٦/٤٧٠

/ إما أن يصفوه بما يقتضي عدمه وتعطيله، فينكرونه، وإن كانوا يقرون به ، فيجمعون - في قولهم - بين الإقرار والإنكار، والنفي والإثبات. وقد يصرح بعضهم بصحة الجمع بين

(١) أحمد ٢٥٧/٤، وابن حبان في موارد الظمان (٢٢٨٠)، وابن أبي شيبة ٤٢٤/١٤، ٤٢٥، والبيهقي في الدلائل ٣٤٢/٥.

(٢) الدارمي في الرقائق ٣٢٦/٢.

النقيضين، ويقول: إن هذا غاية التحقيق والعرفان.

وإما أن يصفوه بما يقتضي أنه عين المخلوقات أو جزء منها، أو صفة لها، وذلك - أيضاً - يقتضي قولهم بعدم الخالق، وتعطيل الصانع - وإن كانوا مقرين بوجود موجود غيره وإن جعلوه إياه، ثم يجدون في المخلوقات مبايناً في ربوبية المخلوق، فيقولون بالجمع بين النقيضين، كما تقدم.

وقد يقولون بعبادة الأصنام، وأن عباد الأصنام على حق، وعباد العجل على حق وأنه ما عبد غير الله قط، إذ لا غير عندهم، بل الوجود واحد، ويقولون بامتناع الدعوة إليه، وأنه يمكن أن يتقرب إليه ويصل إليه، وهم يقولون: ما عدم في البداية فيدعى إلى الغاية، بل هو عين المدعو، فكيف يدعو إلى نفسه؟

وكلام السلف والأئمة في ذم الجهمية وتكفيرهم كثير جداً.

وهؤلاء - ومن وافقهم على بعض أقوالهم التي تنفي حقيقة اللقاء - يتأولون «اللقاء» على أن المراد به لقاء جزاء ربهم، ويقولون: إن الجزاء قد يرى، كما في قوله: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾. قُلْ إِنَّمَا أَعْلَمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ. فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيِّئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي / كُنْتُمْ بِهِ تَدْعُونَ ﴿[الملك: ٢٥-٢٧]، فإن ضمير المفعول في ﴿رَأَوْهُ﴾ عائد إلى الوعد، والمراد به الموعود، أي: فلما رأوا ما وعدوا سيئت وجوه الذين كفروا.

ومن قال: إن الضمير عائد هنا إلى الله، فقوله ضعيف، وفساد قول الذين يجعلون المراد لقاء الجزاء دون لقاء الله معلوم بالاضطرار، بعد تدبر الكتاب والسنة، يظهر فساده من وجوه:

أحدهما: أنه خلاف التفاسير المأثورة عن الصحابة والتابعين.

الثاني: أن حذف المضاف إليه يقارنه قرائن، فلا بد أن يكون مع الكلام قرينة تبين ذلك، كما قيل في قوله: ﴿وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ [يوسف: ٨٢] ولو قال قائل: رأيت زيدا، أو لقيته مطلقاً، وأراد بذلك لقاء أبيه أو غلامه لم يجز ذلك في لغة العرب بلا نزاع، ولقاء الله قد ذكر في كتاب الله وسنة رسوله في مواضع كثيرة، مطلقاً غير مقترن بما يدل على أنه أريد بلقاء الله لقاء بعض مخلوقاته من جزاء أو غيره.

الثالث: أن اللفظ إذا تكرر ذكره في الكتاب، ودار مرة بعد مرة على وجه واحد، وكان المراد به غير مفهومه ومقتضاه عند الإطلاق، ولم يبين ذلك، كان تدليساً وتليسياً،

يجب أن يصاب كلام الله عنه، الذي أخبر أنه شفاء لما في الصدور، وهدى ورحمة للمؤمنين، وأنه بيان للناس، وأخبر أن الرسول قد بلغه البلاغ المبين، وأنه بين للناس ما نزل إليهم، وأخبر أن عليه بيانه، ولا / يجوز أن يقال: ما في العقل دلالة على امتناع إرادة هذا المعنى هو القرينة التي دل المخاطبين على الفهم بها؛ لوجهين:

أحدهما: أن يقال: ليس في العقل ما ينافي ذلك، بل الضرورة العقلية، والبراهين العقلية توافق ما دل عليه القرآن، كما قال: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ﴾ [سبأ: ٦]، وما يذكر من الحجج العقلية المخالفة لدلول القرآن، فهو شبهات فاسدة عند من له خبرة جيدة بالمعقولات، دون من يقلد فيها بغير نظر تام.

الثاني: أنه لو فرض أن هناك دليلاً عقلياً ينافي مدلول القرآن لكان خفياً دقيقاً، ذا مقدمات طويلة مشككة متنازع فيها، ليس فيها مقدمة متفق عليها بين العقلاء، إذ ما يذكر من الأدلة العقلية المخالفة لدلول القرآن هي شبهات فاسدة كلها ليست من هذا الباب.

ومعلوم أن المخاطب - الذي أخبر أنه بين للناس، وأن كلامه بلاغ مبين، وهدى للناس - إذا أراد بكلامه ما لا يدل عليه ولا يفهم منه إلا مثل هذه القرينة، لم يكن قد بين وهدى، بل قد كان ليس وأضل، وهذا مما اتفق المسلمون على وجوب تنزيه الله ورسوله، بل وعامة الصحابة والأئمة من ذلك.

الرابع: أن قول النبي ﷺ في الحديث المتفق عليه: «اللهم لك الحمد أنت رب السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن، أنت الحق، وقولك الحق، ولقاؤك حق، والجنة حق، والنار حق، والنبيون حق، ومحمد حق، اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وإليك حاكمت، وبك خاصمت، اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، وما أنت أعلم به مني، أنت إلهي لا إله إلا أنت»، وفي لفظ: «أعوذ بك أن تضلني»، أنت الحي الذي لا تموت، والجن والإنس يموتون»^(١). ففي الحديث فرق بين لقائه وبين الجنة والنار، والجنة والنار تتضمن جزاء المطيعين والعصاة، فعلم أن لقاءه ليس هو لقاء الجنة والنار.

الخامس: أن النبي ﷺ ذكر في غير حديث ما يبين لقاء العبد ربه، كما في الصحيحين عن عدي بن حاتم عن النبي ﷺ أنه قال: «ما منكم من أحد إلا سيكلمه الله ليس بينه وبينه حاجب ولا ترجمان؛ فينظر أيمن منه فلا يرى إلا شيئاً قدّمه، وينظر أشأم

(١) سبق تخريجه ص ٢٣٠.

منه فلا يرى إلا شيئاً قدمه، فستقبله النار، فمن استطاع أن يتقي النار ولو بشق تمرة فليفعل، فإن لم يستطع فبكلمة طيبة»^(١)، إلى أمثال ذلك من الأحاديث.

السادس : أنه لو أريد بلقاء الله بعض المخلوقات - إما جزاء وإما غير جزاء - لكان ذلك واقعاً في الدنيا والآخرة، فكان العبد لا يزال ملائقياً لربه، ولما علم المسلمون بالاضطرار من دين الإسلام أن لقاء الله لا يكون إلا بعد الموت، علم بطلان أن «اللقاء» لقاء بعض المخلوقات، ومعلوم أن الله قد جازى خلقاً على / أعمالهم في الدنيا بخير وشر، كما جازى قوم نوح، وعاد، وثمود، وفرعون، وكما جازى الأنبياء وأتباعهم، ولم يقل مسلم : إن لقاء هذه الأمور في الدنيا لقاء الله، ولو قال قائل : إن لقاء الله جزاء مخصوص وهو الجنة مثلاً، أو النار، لقليل له : ليس في لفظ هذا لقاء مخصوص، ولا دليل عليه، وليس هو بأولى من أن يقال : لقاء الله - تعالى - لقاء بعض ملائكته، أو بعض الشياطين، وأمثال ذلك من التحكمات الموجودة في الدنيا والآخرة، إذ ليس دلالة اللفظ على تعيين هذا بأولى من دلالة على تعيين هذا، فبطل ذلك.

الوجه السابع : أن لقاء الله لم يستعمل في لقاء غيره، لا حقيقة ولا مجازاً، ولا استعمل لقاء زيد في لقاء غيره أصلاً، بل حيث ذكر هذا اللفظ، فإنما يراد به لقاء المذكور؛ إذ ما سواه لا يشعر اللفظ به، فلا يدل عليه.

الوجه الثامن : أن قوله : «هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا. تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا» [الأحزاب: ٤٣، ٤٤]، فلو كان اللقاء هو لقاء جزائه، لكان هو لقاء الأجر الكريم الذي أعد لهم، وإذا أخبر بأنهم يلقون ذلك لم يحسن بعد ذلك الإخبار بإعداده؛ إذ الإعداد مقصوده الوصول، فكيف يخبر بالوسيلة بعد حصول المقصود؟ هذا نزاع بين العي^(٢) الذي يسان عنه كلام أوسط الناس فضلاً عن كلام رب العالمين، لا سيما وقد قرن اللقاء بالتحية، وذلك لا يكون إلا في اللقاء المعروف، لا في حصول شيء من النعيم المخلوق.

الوجه التاسع : أن قول النبي ﷺ في الحديث الصحيح : «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه»، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه»^(٣)، أخبر فيه أن الله يحب لقاء عبد ويكره

(١) سبق تخريجه ص ٩١.

(٢) أي : الجهل والعجز . انظر : النهاية ٣/ ٣٣٤.

(٣) مسلم في الذكر والدعاء (٢٦٨٣/ ١٤) والترمذي في الجنائز (١٠٦٦).

لقاء عبد، وهذا يمتنع حمله على الجزاء؛ لأن الله لا يكره جزاء أحد، ولأن الجزاء لا يلقاه الله، ولأنه إن جاز أن يلقى بعض المخلوق كالجزاء أو غيره جاز أن يلقى العبد، فالمحذور الذي يذكر في لقاء العبد موجود في لقائه سائر المخلوقات، فهذا تعطيل النص، وإما أن يقال: بل هو لاق لبعضها، فيتناقض قول الجهمي ويبطل.

ودلائل بطلان هذا القول لا تكاد تحصى، يضيق هذا الاستفتاء عن ذكر كثير منها فضلاً عن أكثرها.

فصل /

٦/٤٧٦

وأما قول السائل: كيف يتصور منا محبة ما لا نعرفه، ولا نطلع عليه؟ إلى آخره.

فيقال له: هذه مسألة أخرى كبيرة، وهي «مسألة محبة المؤمن ربه»، فإن الكتاب والسنة تنطق بذلك، كقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، وقوله: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١]، وقوله: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ [التوبة: ٢٤]، وقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ الآية [المائدة: ٥٤].

وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله، ومن كان يكره أن يرجع إلى الكفر كما يكره أن يلقى في النار»^(١)، وأمثال ذلك من النصوص.

وهذه المحبة على حقيقتها عند سلف الأمة وأئمتها ومشائخها، وأول من أنكر حقيقتها شيخ الجهمية الجعد بن درهم، فقتله / خالد بن عبد الله القسري بواسط يوم النحر، وقال: يا أيها الناس، ضحوا، تقبل الله ضحاياكم، فإني مضح بالجعد بن درهم، إنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً، ولم يكلم موسى تكليماً، تعالى الله عما يقول الجعد علواً كبيراً!! ثم نزل فذبحه.

٦/٤٧٧

فإن هؤلاء أنكروا حقيقة «الخلّة»؛ لأن الخلّة كالمحبة، وأنكروا حقيقة «التكليم» وجعلوا

(١) البخاري في الإيمان (١٦)، ومسلم في الإيمان (٦٧/٤٣)، كلاهما عن أنس.

التكليم ما يخلقه في بعض الأجسام، أو هو من جنس الإلهام، حتى ادعى طوائف منهم أن أحدنا قد يحصل له التكليم كما حصل لموسى - عليه السلام - بل سمع عين ما سمعه موسى، والله - تعالى - قد بين اختصاص موسى بذلك عن سائر الأنبياء، فكيف عن سائر المؤمنين والأولياء، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ﴾ إلى قوله: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٣، ١٦٤]! ففرق بين الإيحاء والتكليم، كما فرق بين الإيحاء والتكليم من وراء حجاب في قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ [الشورى: ٥١]، وكما بين هذه الخاصة في قوله: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

ثم هؤلاء الذين أنكروا حقيقة المحبة، لم يمكنهم إنكار لفظها؛ لأنه جاء في الكتاب والسنة، ففسروا محبته بعبادته وطاعته، وامثال أمره، أو محبة أوليائه، ونحو ذلك مما يضاف إليه، ولو علموا أن محبوب الغير لا يكون محبوباً إلا إذا كان/ ذلك الغير محبوباً فيكون هو المحبوب بالذات والوسائل يحبون بالعرض. ولو تدبروا قولهم لعلموا أنه مستحيل أن تحب عبادته أو أوليائه إذا لم يكن هو محبوباً، فإذا قدروا أنه هو شيء ليس محبوباً لذاته، كانت محبة العمل الذي يحصل الأكل والشرب إنما هي في الحقيقة محبة الأكل والشرب والنكاح، وكان ذلك من جنس محبة سائر المشتبهات؛ فإذا تكون محبة الله ورسوله إنما هي في الحقيقة محبة الأكل والشرب، إذا كان الله لا يحب لنفسه على رأي هؤلاء.

وهذه المسألة أصل عبادة الله، كما أن المسألة الأولى أصل الإقرار بالله، فتلك فيها ذهاب النفس والمال، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ﴾ الآية [التوبة: ١١١].

ولهذا نعت المحبين المحبوبين بقوله: ﴿أَذَلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤]، بل أصل الولاية الحب، وأصل العداوة البغض، وإنكار الحب والبغض يتضمن إنكار ولاية الله وعداوته، كما أنكروا بعض الفقهاء قوله: «إنه لا يعز من عاديت»، وقوله: ﴿لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ [المتحنة: ١] وهذا باب طويل. وقد كتبت في هذين الأصلين عدداً يبلغ أكثر من الأسفار، وكلام الأولين والآخرين من أهل العلم والإيمان موجود في هذا.

فقول القائل: كيف نتصور عبادة من لا نعرفه، إذ الإيمان بما لا نعرفه، أو الطاعة لما

لا نعرفه، أو التسييح والتحميد بما لا نعرفه ونحو ذلك من / العبادات، فهذه الأمور لا يمكن أن تتعلق بمجهول من كل وجه، إذ ذلك ممتنع لا يجب أن تكون معرفته للمعبود المحبوب كمعرفته بنفسه، بل ليس لنا في الوجود من نجهه أو نبغضه، ونحن نعرفه كمعرفة الله به، والمعرفة قد تكون من جهة الاستدلال والنظر.

ولا ريب أن المؤمنين يعرفون ربهم في الدنيا، ويتفاوتون في درجات العرفان، والنبى ﷺ أعلمنا بالله. وقد قال: «لا أحصى ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك»^(١)، وهذا يتعلق بمعرفة زيادة المعرفة ونقصها، المتعلقة بمسألة زيادة الإيمان ونقصه، وهي مسألة كبيرة.

والذي مضى عليه سلف الأمة وأئمتها: أن نفس الإيمان الذي في القلوب يتفاضل، كما قال النبى ﷺ: «أخرجوا من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان»^(٢)، وأما زيادة العمل الصالح الذي على الجوارح ونقصانه فمتفق عليه، وإن كان في دخوله في مطلق الإيمان نزاع، وبعضه لفظي، مع أن الذي عليه أئمة أهل السنة والحديث - وهو مذهب مالك، والشافعي، وغيرهم - : أن الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص.

وأئمة المسلمين أهل المذاهب الأربعة وغيرهم - مع جميع الصحابة والتابعين لهم بإحسان - متفقون على أن المؤمن لا يكفر بمجرد الذنب كما تقوله الخوارج، ولا يسلب جميع الإيمان كما تقوله المعتزلة، لكن بعض الناس قال: إن إيمان الخلق مستو، فلا يتفاضل إيمان أبي بكر وعمر وإيمان الفساق، بناء على أن التصديق بالقلب واللسان، أو بالقلب، وذلك لا يتفاضل.

/ وأما عامة السلف والأئمة، فعندهم أن إيمان العباد لا يتساوى، بل يتفاضل، وإيمان السابقين الأولين أكمل من إيمان أهل الكبائر المجرمين، ثم النزاع مبني على الأصلين:

أحدهما: العمل، هل يدخل في مطلق الإيمان؟ فإن العمل يتفاضل بلا نزاع، فمن أدخله في مطلق الإيمان قال: يتفاضل، ومن لم يدخله في مطلق الإيمان احتاج إلى الأصل الثاني وهو: أن ما في القلب من الإيمان هل يتفاضل؟ فظن من نفي التفاضل أن ليس في القلب - من محبة الله، وخوفه ورجائه، والتوكل عليه وأمثال ذلك مما قد يخرج به هؤلاء عن محض التصديق - ما هو متفاضل بلا ريب، ثم نفس التصديق - أيضاً - متفاضل من جهات:

منها: أن التصديق بما جاء به الرسول ﷺ قد يكون مجملًا، وقد يكون مفصلًا،

(١) مسلم في الصلاة (٢٢٢/٤٨٦)، وأبو داود في الصلاة (٨٧٩)، والترمذي في الدعوات (٣٤٩٣)، والنسائي في الطهارة (١٦٩)، وابن ماجه في الدعاء (٣٨٤١).

(٢) البخارى في الإيمان (٢٢) ومسلم في الإيمان (٣٠٤/١٨٤).

والمفصل من المجمع ، فليس تصديق من عرف القرآن ومعانيه ، والحديث ومعانيه ،
وصدق بذلك مفصلاً ، كمن صدق أن محمداً رسول الله ﷺ ، وأكثر ما جاء به لا يعرفه
أو لا يفهمه .

ومنها : أن التصديق المستقر المذكور أتم من العلم الذي يطلب حصوله مع الغفلة عنه .

ومنها : أن التصديق نفسه يتفاضل كنهه ، فليس ما أثنى عليه البرهان بل تشهد له
الأعيان ، وأميط عنه كل أذى وحسبان ، حتى بلغ أعلى الدرجات ، درجات الإيقان ،
تصديق زعزعتة الشبهات ، وصدفته الشهوات ، ولعب به / التقليد ، ويضعف لشبه المعاند
العنيد ، وهذا أمر يجده من نفسه كل منصف رشيد .

ولهذا كان المشائخ - أهل المعرفة والتحقيق ، السالكون إلى الله أقصد طريق - متفقين
على الزيادة والنقصان في الإيمان والتصديق ، كما هو مذهب أهل السنة والحديث في
القديم والحديث ، وهذه مسائل كبار ، لا يمكن فيها إلا الإطناب بمثل هذا الجواب .

٦/٤٨٢ / فَصْل

وأما قول السائل : قد يعترض على هذا السؤال ، وهو إذا كان حب اللقاء ؛ لما رآه
من النعيم ، فالمحبة حينئذ للنعيم العائد عليه ، لا لمجرد لقاء الله .

فيقال له : ليس كذلك ، ولكن لقاء الله على نوعين : « لقاء محبوب » و « لقاء مكروه »
كما قال سليمان بن عبد الملك لأبي حازم - سلمة بن دينار الأعرج - : كيف القدوم على
الله - تعالى ؟ فقال : المحسن كالمغائب يقدم على مولاه ، وأما المسيء كالآبق يقدم به على
مولاه .

فلما كان اللقاء نوعين - وإنما يميز أحدهما عن الآخر في الإخبار بما يوصف به هذا
اللقاء ، وهذا اللقاء - وصف النبي ﷺ اللقاء المحبوب بما تتقدمه البشـرى بالخير ، وما
يقترن به من الإكرام ، واللقاء المكروه بما يتقدمه من البشـرى بالسوء ، وما يقترن به من
الإهانة ، فصار المؤمن مخبراً بأن لقاءه لله لقاء محبوب ، والكافر مخبراً بأن لقاءه لله
مكروه ، فصار المؤمن يحب لقاء الله ، وصار الكافر يكره لقاء الله ، فأحب الله لقاء هذا ،
وكره لقاء هذا ﴿ جزاء وفاقاً ﴾ [النبا : ٢٦] .

٦/٤٨٣ فإن الجزاء بذلك من جنس العمل ، كما قال ﷺ : « الراحمون / يرحمهم الرحمن ،
ارحموا ترحموا ، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء » ، وكما قال ﷺ : « من

(١) أبو داود في الأدب (٤٩٤١) والترمذي في البر والصلة (١٩٢٤) وقال : « حسن صحيح » .

نَفْسٍ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كَرْبِ الدُّنْيَا نَفْسَ اللَّهِ عَنْهُ كَرْبَةٌ مِنْ كَرْبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ يَسَّرْ عَلَى مَعْسَرٍ يَسِّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ»^(١).

وفي الحديث الصحيح الإلهي: «من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه، ومن تقرب إلى شبراً تقربت منه ذراعاً، ومن تقرب إلي ذراعاً تقربت منه باعاً، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة»^(٢)، وقال ﷺ: «من كان له لسانان في الدنيا كان له لسانان من نار يوم القيامة»^(٣)، وقال: «من استمع إلى حديث قوم وهم له كارهون، صُبَّ في أذنيه الآنك يوم القيامة»^(٤)، وقال: «لا تزال المسألة بالرجل حتى يجيء يوم القيامة وليس في وجهه مُزعة لحم»^(٥).

وقال تعالى: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [النور: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿إِنْ تَبَدُّوا خَيْرًا أَوْ تَخَفُوا أَوْ تَعَفُّوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٤٩]. ومثل هذا في الكتاب والسنة كثير، يبين فيهما أن الجزاء من جنس العمل.

وفي الحديث الصحيح، الذي رواه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «يقول الله: من عادى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة، وما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنتُ سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها؛ فبني يسمع، وبني يبصر، وبني يمشي، ولئن سألتني ل أعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن، يكره الموت وأكره مساءته، ولا بد له منه»^(٦).

فبين سبحانه أن العبد إذا تقرب إليه بمحابه من النوافل بعد الفرائض أحبه الرب كما وصف، وهذا ما احتملته هذه الأوراق من الجواب. والحمد لله رب العالمين.

(١) البخاري في المظالم (٢٤٤٢) ومسلم في البر والصلة (٥٦/٢٥٧٨).
(٢) البخاري في التوحيد (٧٤٠٥) ومسلم في الذكر والدعاء (٢٠/٢٦٧٥).
(٣) أبو داود في الأدب (٤٨٧٣)، والدارمي في الرقائق ٣١٤/٢، كلاهما عن عمار بلفظ: «من كان له وجهان في الدنيا...».

(٤) البخاري في التعبير (٧٠٤٢)، وأبو داود في الأدب (٥٠٢٤)، والترمذي في اللباس (١٧٥١)، وأحمد ٢٤٦/١، كلهم عن ابن عباس.

و«الآنك»: الرصاص الأبيض، وقيل: الأسود. انظر: النهاية ٧٧/١.

(٥) مسلم في الزكاة (١٠٤٠/١٠٤٠) وأحمد ١٥/٢، ٨٨.

(٦) سبق تخريجه ص ٧.

٦/٤٨٥ / قال شيخ الإسلام في «رسالته إلى أهل البحرين» واختلافهم في صلاة الجمعة:

والذي أوجب هذا : أن وفدكم حدثونا بأشياء من الفرقة والاختلاف بينكم، حتي ذكروا أن الأمر آل إلى قريب المقاتلة، وذكروا أن سبب ذلك الاختلاف في رؤية الكفار ربهم، وما كنا نظن أن الأمر يبلغ بهذه المسألة إلى هذا الحد، فالأمر في ذلك خفيف .

وإنما المهم الذي يجب على كل مسلم اعتقاده: أن المؤمنين يرون ربهم في الدار الآخرة في عَرَصَة^(١) القيامة وبعد ما يدخلون الجنة، على ما تواترت به الأحاديث عن النبي ﷺ عند العلماء بالحديث، فإنه أخبر ﷺ: «أنا نرى ربنا كما نرى القمر ليلة البدر والشمس عند الظهيرة، لا يضام في رؤيته»^(٢).

ورؤيته - سبحانه - هي أعلى مراتب نعيم الجنة، وغاية مطلوب الذين عبدوا الله مخلصين له الدين ، وإن كانوا في الرؤية على درجات على حسب قربهم من الله ومعرفتهم به .

٦/٤٨٦ / والذي عليه جمهور السلف: أن من جحد رؤية الله في الدار الآخرة فهو كافر، فإن كان ممن لم يبلغه العلم في ذلك عرف ذلك، كما يعرف من لم تبلغه شرائع الإسلام، فإن أصر على الجحود بعد بلوغ العلم له فهو كافر .

والأحاديث والآثار في هذا كثيرة مشهورة، قد دون العلماء فيها كتباً مثل : « كتاب الرؤية » للدارقطني، ولأبي نعيم، وللأجري، وذكرها المصنفون في السنة كابن بطة، واللالكائي ، وابن شاهين، وقبلهم عبد الله بن أحمد بن حنبل، وحنبل بن إسحاق، والخلال ، والطبراني ، وغيرهم . وخرجها أصحاب الصحيح والمسند والسنن وغيرهم .

فأما مسألة رؤية الكفار، فأول ما انتشر الكلام فيها وتنازع الناس فيها - فيما بلغنا - بعد ثلاثمائة سنة من الهجرة ، وأمسك عن الكلام في هذا قوم من العلماء، وتكلم فيها آخرون، فاختلَفوا فيها على ثلاثة أقوال، مع أنني ما علمت أن أولئك المختلفين فيها تلاعنوا ولا تهاجروا فيها؛ إذ في الفرق الثلاثة قوم فيهم فضل وهم أصحاب سنة .

والكلام فيها قريب من الكلام في مسألة محاسبة الكفار : هل يحاسبون أم لا ؟ هي

(١) العَرَصَة : البقعة الواسعة التي ليس فيها بناء . انظر: المصباح المنير، مادة «عرص» .

(٢) سبق تخريجه ص ٢٨١ .

مسألة لا يكفر فيها بالاتفاق، والصحيح - أيضاً - ألا يضيق فيها ولا يهجر، وقد حكى عن أبي الحسن بن بشار أنه قال: لا يصلي خلف من يقول: إنهم يحاسبون. والصواب الذي عليه الجمهور: أنه يصلي خلف الفريقين، بل يكاد الخلاف بينهم يرتفع عند التحقيق؛ مع أنه قد اختلف فيها / أصحاب الإمام أحمد، وإن كان أكثرهم يقولون: لا يحاسبون، واختلف فيها غيرهم من أهل العلم وأهل الكلام.

وذلك أن الحساب قد يراد به الإحاطة بالأعمال وكتابتها في الصحف، وعرضها على الكفار، وتوبيخهم على ما عملوه، وزيادة العذاب ونقصه بزيادة الكفر ونقصه، فهذا الضرب من الحساب ثابت بالاتفاق.

وقد يراد بالحساب وزن الحسنات بالسيئات؛ ليتبين أيهما أرجح، فالكافر لا حسنات له توزن بسيئاته؛ إذ أعماله كلها هابطة، وإنما توزن لتظهر خفة موازينه لا ليتبين رجحان حسنات له. وقد يراد بالحساب: أن الله هل هو الذي يكلمهم أم لا؟ فالقرآن والحديث يدلان على أن الله يكلمهم تكليم توبيخ وتقريع وتبكيث، لا تكليم تقريب وتكريم ورحمة، وإن كان من العلماء من أنكر تكليمهم جملة.

والأقوال الثلاثة في رؤية الكفار:

أحدها: أن الكفار لا يرون ربهم بحال، لا المظهر للكفر ولا المسر له، وهذا قول أكثر العلماء المتأخرين، وعليه يدل عموم كلام المتقدمين، وعليه جمهور أصحاب الإمام أحمد وغيرهم.

الثاني: أنه يراه من أظهر التوحيد من مؤمني هذه الأمة ومنافقيها وغُبرات^(١) من أهل الكتاب وذلك في عَرَصَةِ القيامة، ثم يحتجب عن المنافقين / فلا يرونه بعد ذلك، وهذا قول أبي بكر بن خزيمة من أئمة أهل السنة، وقد ذكر القاضي أبو يعلى نحوه في حديث إتيانه - سبحانه وتعالى - لهم في الموقف الحديث المشهور.

الثالث: أن الكفار يرونه رؤية تعريف وتعذيب - كاللص إذا رأى السلطان - ثم يحتجب عنهم ليعظم عذابهم ويشدد عقابهم، وهذا قول أبي الحسن بن سالم وأصحابه وقول غيرهم، وهم في الأصول منتسبون إلى الإمام أحمد بن حنبل، وأبي سهل بن عبد الله التستري.

وهذا مقتضى قول من فسر «اللقاء» في كتاب الله بالرؤية؛ إذ طائفة من أهل السنة

(١) أي: بقايا. انظر: النهاية ٣/٣٣٨.

منهم أبو عبد الله بن بطة الإمام، قالوا في قول الله: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ﴾ [الكهف: ١٠٥]، وفي قوله: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنْ أَجَلَ اللَّهُ لَاتِ﴾ [العنكبوت: ٥]، وفي قول الله: ﴿وإنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ. الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٤٥، ٤٦]، وفي قوله: ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، وفي قوله: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ٣١]: إن اللقاء يدل على الرؤية والمعانية، وعلى هذا المعنى، فقد استدل المثبتون بقوله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦].

ومن أهل السنة من قال: اللقاء إذا قرن بالتحية فهو من الرؤية، وقال ابن بطة: سمعت أبا عمر الزاهد اللغوي يقول: سمعت أبا العباس - أحمد بن يحيى - / بلغنا (١) يقول في قوله: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا. تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾ [الأحزاب: ٤٣، ٤٤]: أجمع أهل اللغة أن اللقاء هاهنا لا يكون إلا معانية ونظرة بالأبصار.

وأما الفريق الأول، فقال بعضهم: ليس الدليل من القرآن على رؤية المؤمنين ربهم قوله: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾ وإنما الدليل آيات أخرى، مثل قوله: ﴿وَجُوهُهُمْ نَاطِرَةٌ. إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣]، وقوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، وقوله: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ. عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ﴾ [المطففين: ٢٢، ٢٣]، وقوله: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٥] إلى غير ذلك.

ومن أقوي ما يتمسك به المثبتون: ما رواه مسلم في صحيحه عن سهيل بن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: سأل الناس رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال: «هل تضارون في رؤية الشمس عند الظهيرة ليست في سحاب؟» قالوا: لا يا رسول الله، قال: «فهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر ليس في سحاب؟» قالوا: لا يا رسول الله، قال: «فوالذي نفسي بيده، لا تضارون في رؤية ربكم إلا كما تضارون في رؤية أحدهما»، قال: «فيلقى العبد فيقول: أي فلان، ألم أكرمك؟ ألم أسودك؟ ألم أزوجك؟ ألم أسخر لك الخيل والإبل، وأتركك ترأس وتربع؟ قال: فيقول: بلى يا رب، قال: فظننت أنك ملاقي؟ فيقول: يا رب، لا. قال: فالיום أنساك كما نسيتني». قال: «فيلقي الثاني فيقول: ألم أكرمك؟ ألم أسودك؟ ألم أزوجك؟ ألم أسخر لك الخيل والإبل، وأتركك ترأس وتربع؟ قال: فيقول: بلى يا رب، قال: فظننت أنك ملاقي؟ فيقول: يا رب، لا. قال: فالיום أنساك كما نسيتني، ثم يلقي الثالث: فيقول له مثل ذلك. فيقول: يارب، آمنت بك وبكتابك وبرسلك،

(١) في المطبوعة: «بلغنا» والصواب ما أثبتناه.

وصليت وصمت وتصدقت ، ويثنى بخير ما استطاع ، فيقال : ألا نبعث شاهدنا عليك ، فيتفكر في نفسه من يشهد على ، فيختم على فيه ، ويقال لفخذه : انطقي فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله وذلك ليعذر من نفسه ، وذلك المنافق الذي سخط الله عليه « إلى هنا رواه مسلم (١) ».

وفي رواية غيره - وهي مثل روايته سواء صحيحة - قال : « ثم ينادي مناد : ألا تتبع كل أمة ما كانت تعبد ، قال : فتتبع أولياء الشياطين ، الشياطين ، قال : واتبعت اليهود والنصارى أولياءهم إلى جهنم ، ثم نبقى أيها المؤمنون ، فيأتينا ربنا ، وهو ربنا فيقول : علام هؤلاء قيام ؟ فنقول : نحن عباد الله المؤمنون عبدناه وهو ربنا ، وهو آتينا وراثتنا وهذا مقامنا . فيقول : أنا ربكم فامضوا ، قال : فيوضع الجسر وعليه كلاليب من النار تخطف الناس ، فعند ذلك حلت الشفاعة لي ، اللهم سَلِّمْ ، اللهم سَلِّمْ . قال : فإذا جاوزوا الجسر ، فكل من أنفق زوجاً من المال مما يملك في سبيل الله فكل خزنة الجنة يدعونه : يا عبد الله ، يا مسلم ، هذا خير ، فتعال . يا عبد الله ، يا مسلم ، هذا خير ، فتعال » فقال أبو بكر - رضي الله عنه - : يا رسول الله ، ذلك العبد لا تَوَى عليه يدع باباً ويلج من آخر ، فضرَب النبي ﷺ على منكبيه وقال : « والذي نفسي بيده ، إني لأرجو أن تكون منهم » (٢) .

٦/٤٩١ / وهذا حديث صحيح ، وفيه أن الكافر والمنافق يلقي ربه . ويقال : ظاهره أن الخلق جميعهم يرون ربهم ، فيلقى الله العبد عند ذلك .

لكن قال ابن خزيمة والقاضي أبو يعلى وغيرهما : اللقاء الذي في الخير غير الترائي ، لا أن الله تراءى لمن قال له هذا القول ، وهؤلاء يقولون : أخبر النبي ﷺ أن المؤمنين يرون ربهم ؛ لأنهم قالوا : هل نرى ربنا ؟ والضمير عائد على المؤمنين ، فذكر النبي ﷺ أن الكافر يلقي ربه فيوبخه ، ثم بعد ذلك تتبع كل أمة ما كانت تعبد ، ثم بعد ذلك يراه المؤمنون .

يبين ذلك أن في الصحيحين من حديث الزهري عن سعيد بن المسيب وعطاء بن يزيد ، عن أبي هريرة : أن الناس قالوا : يا رسول الله ، هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ قال : « هل تمارون في القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب ؟ » قالوا : لا يا رسول الله . قال : « فهل تمارون في الشمس ليس دونها سحاب ؟ » قالوا : لا . قال : « فإنكم ترونه كذلك ، يحشر الناس يوم القيامة ، فيقول : من كان يعبد شيئاً فليتبعه ، فمنهم من يتبع الشمس ، ومنهم من يتبع القمر ، ومنهم من يتبع الطواغيت ، وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها ، فيأتهم الله ، فيقول : أنا ربكم ، فيقولون : هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا ، فإذا جاء ربنا عرفناه ، فيأتهم الله

(١) ، (٢) سبق تخريجهما ص ٢٨١ .

في صورته التي يعرفون ، فيقول: أنا ربكم ، فيقولون: أنت ربنا، فيعرفونه ويضرب الصراط بين ظهري جهنم، فأكون أول من جاوز من الرسل بأمته، ولا / يتكلم يومئذ ٦/٤٩٢ أحد إلا الرسل، وكلام الرسل يومئذ: اللهم سلّم سلّم، وفي جهنم كلاليب مثل شوك السعدان، هل رأيتم شوك السعدان؟ قالوا: نعم. قال: «فإنها مثل شوك السعدان، غير أنه لا يعلم قدر عظمتها إلا الله، تخطف الناس بأعمالهم، فمنهم من يوبق بعمله، ومنهم المجازي حتي ينجو، حتى إذا أراد الله رحمة من أراد من أهل النار، أمر الله الملائكة أن يخرجوا من كان يعبد الله فيخرجونهم، ويعرفونهم بآثار السجود، وحرّم الله على النار أن تأكل أثر السجود، فيخرجون من النار قد امتحشوا، فيصب عليهم ماء الحياة، فينبئون كما تنبت الحبة في حميل السيل، ثم يفرغ الله من القضاء بين العباد، ويبقى رجل بين الجنة والنار - وهو آخر أهل النار دخولا الجنة - فيقبل بوجهه قبل النار فيقول: يا رب، اصرف وجهي عن النار قد قسّيتني ريحها وأحرقني ذكاؤها، فيقول: هل عسيت أن فعل بك ذلك ألا تسأل غير ذلك؟ فيقول: لا وعزتك، فيعطي الله ما شاء من عهد وميثاق، فيصرف الله وجهه عن النار، فإذا أقبل به على الجنة ورأى بهجتها سكّت ما شاء الله أن يسكت، ثم قال: يا رب، قدمني عند باب الجنة، فيقول الله له: أليس قد أعطيت العهود والميثاق ألا تسأل غير الذي كنت سألت؟ فيقول: يا رب، لا أكون أشقى خلقك، فيقول: هل عسيت إن أعطيتك ذلك ألا تسأل غير ذلك؟ فيقول: لا وعزتك، لا أسأل غير ذلك، فيعطي ربه ما شاء من عهد وميثاق، فيقدمه إلى باب الجنة، فإذا بلغ بابها فرأى زهرتها وما فيها من النظرة والسرور فيسكت ما شاء الله أن يسكت، فيقول: يا رب، أدخلني الجنة، فيقول الله: ويحك يا ابن آدم! ما أغدرك؟ أليس قد أعطيت العهود والميثاق ألا تسأل غير / الذي أعطيت؟ فيقول: يا رب، لا تجعلني أشقى خلقك. فيضحك الله منه، ثم يؤذن له في دخول الجنة فيقول: تمنّ. فيتمنى حتى إذا انقطعت أمنيته قال الله: من كذا وكذا، أقبل يذكره ربه، حتى إذا انتهت به الأمانى قال الله: لك ذلك ومثله معه^(١).

قال أبو سعيد الخدري لأبي هريرة - رضي الله عنهما - : إن رسول الله ﷺ قال: «قال الله: لك ذلك وعشرة أمثاله»، قال أبو هريرة: لم أحفظ من رسول الله ﷺ إلا قوله: «لك ذلك ومثله معه»، قال أبو سعيد: إني سمعته يقول: «لك ذلك وعشرة أمثاله». وفي رواية في الصحيح قال: وأبو سعيد مع أبي هريرة لا يرد عليه في حديثه شيئا حتى إذا قال أبو هريرة: إن الله قال: «لك ذلك ومثله معه»، قال أبو سعيد الخدري: وعشرة أمثاله يا أبا هريرة.

(١) البخارى فى التوحيد (٧٤٣٧) ومسلم فى الإيمان (٢٩٩/١٨٢).

فهذا الحديث من أصح حديث على وجه الأرض، وقد اتفق أبو هريرة وأبو سعيد... (١). وليس فيه ذكر الرؤية إلا بعد أن تتبع كل أمة ما كانت تعبد.

وقد روى بإسناد جيد من حديث عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال: «يجمع الله الناس يوم القيامة، قال: فينادي مناد: يا أيها الناس، ألم ترضوا من ربكم الذي خلقكم وصوركم ورزقكم أن يولي كل إنسان منكم إلى من كان يعبد في الدنيا ويتولى؟ قال: ويمثل لمن كان يعبد عيسى شيطان عيسى، ويمثل لمن / كان يعبد عزيزاً شيطان عزيز. حتى يمثل لهم الشجرة والعود والحجر، ويبقى أهل الإسلام جثوماً^(٢)، فيقال لهم: ما لكم لا تتطلقون كما انطلق الناس؟ فيقولون: إن لنا رباً ما رأيناه بعد، قال: فيقال: فبم تعرفون ربكم إذا رأيتموه؟ قالوا: بيننا وبينه علامة، إن رأيناه عرفناه. قيل: وما هو؟ قالوا: يكشف عن ساق»^(٣)، وذكر الحديث.

٦/٤٩٤

ففي هذا الحديث: أن المؤمنين لم يروه قبل تجليه لهم خاصة، وأصحاب القول الآخر يقولون: معنى هذا لم يروه مع هؤلاء الآلهة التي يتبعها الناس؛ فلذلك لم يتبعوا شيئاً.

يدل على ذلك ما في الصحيحين - أيضاً - من حديث زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد الخدري قلنا: يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال رسول الله ﷺ: «نعم»، فهل تضارون في رؤية الشمس بالظهيرة صَحْواً ليس معها سحب؟ وهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر صحواً ليس فيها سحب؟ قالوا: لا يا رسول الله، قال: «ما تضارون في رؤية الله - تبارك وتعالى - يوم القيامة إلا كما تضارون في رؤية أحدهما. إذا كان يوم القيامة أذن مؤذن: لتتبع كل أمة ما كانت تعبد، فلا يبقى أحد كان يعبد غير الله من الأصنام والأنصاب إلا يتساقطون في النار، حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله من بر وفاجر، وغبر أهل الكتاب، فيدعي اليهود، فيقال لهم: ما كنتم تعبدون؟ قالوا: كنا نعبد عزيز ابن الله، فيقول: كذبتُم، ما اتخذ الله من صاحبة / ولا ولد، فماذا تبغون؟ قالوا: عطشنا يا رب فاسقنا، فيشار إليهم ألا تردون، فيحشرون إلى النار كأنها سراب يحطم بعضها بعضاً، فيتساقطون في النار، ثم يدعي النصارى فيقال لهم: ما كنتم تعبدون؟ قالوا: كنا نعبد المسيح ابن الله، فيقال لهم: كذبتُم، ما اتخذ الله من صاحبة / ولا ولد، فماذا تبغون؟ فيقولون: عطشنا يا رب فاسقنا، قال: فيشار إليهم ألا تردون، فيحشرون إلى جهنم كأنها سراب يحطم بعضها بعضاً، فيتساقطون في النار، حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله من بر وفاجر أتاهم الله في أدنى صورة من التي رأوه فيها» - وفي

٦/٤٩٥

(١) بياض بالأصل.

(٢) أي: بركوا على الأرض كبروك الإبل. انظر: النهاية ٢٣٩/١.

(٣) كنز العمال ٣٦٨/١٤ (٣٨٩٦٩).

رواية - قال : «فأتيهم الجبار في صورة غير الصورة التي رأوها أول مرة ، قال : فما تنتظرون؟ لتتبع كل أمة ما كانت تعبد، قالوا: يا ربنا ، فارقنا الناس في الدنيا أفقر ما كنا إليهم ولم نصاحبهم ، فيقول : أنا ربكم، فيقولون : نعوذ بالله منك لا نشرك بالله شيئاً - مرتين ، أو ثلاثاً، حتى إن بعضهم ليكاد أن يتقلب - فيقول : هل بينكم وبينه آية تعرفونه بها؟ فيقولون: نعم، فيكشف عن ساق فلا يبقى من كان يسجد لله من تلقاء نفسه إلا أذن الله له بالسجود، ولا يبقى من كان يسجد نفاقاً ورياء إلا جعل الله ظهره طبقة واحدة، كلما أراد أن يسجد خرَّ على قفاه، ثم يرفعون رؤوسهم، وقد تحول في الصورة التي رأوه فيها أول مرة، فقال: أنا ربكم ، فيقولون: أنت ربنا. ثم يضرب الجسر على جهنم وتحل الشفاعة، ويقولون: اللهم سَلِّمْ سَلِّمْ»، قيل: يا رسول الله ، وما الجسر؟ قال: «دَحْضُ مَرْكَةٍ فيه خطاطيف وكلاليب ، وحسكة تكون بنجد ، فيها شُوَيْكَةٌ يقال لها: السَّعدَان. فيمر المؤمنون كطرف العين، والبرق ، والريح، والطير، / وكأجود الخيل والركاب، فَتَنَاجٍ مُسَلِّمٌ، وَمَخْدُوشٌ مرسل، ومُكْرَدَسٌ في نار جهنم حتى إذا خلص المؤمنون من النار، فو الذي نفسي بيده، ما من أحد بأشد مناشدة لله في استقصاء الحق من المؤمنين لله يوم القيامة لإخوانهم الذين في النار»^(١).

ففي هذا الحديث: ما يستدل به على أنهم رأوه أول مرة قبل أن يقول: «للتبع كل قوم ما كانوا يعبدون». وهي الرؤية الأولى العامة التي في الرؤية الأولى عن أبي هريرة، فإنه أخبر في ذلك الحديث بالرؤية واللقاء، ثم بعد ذلك يقول: «للتبع كل قوم ما كانوا يعبدون».

وكذلك جاء مثله في حديث صحيح من رواية العلاء ، عن أبيه ، عن أبي هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : «يجمع الله الناس يوم القيامة في صعيد واحد، ثم يطلع عليهم رب العالمين، فيقول: ألا يتبع الناس ما كانوا يعبدون، فيمثل لصاحب الصليب صليبه، ولصاحب النار ناره، ولصاحب التصوير تصويره، فيتبعون ما كانوا يعبدون، ويبقى المسلمون فيطلع عليهم رب العالمين، فيقول: ألا تتبعون الناس! فيقولون : نعوذ بالله منك ، الله ربنا، وهذا مكاننا حتى نرى ربنا، وهو يأمرهم ويشبهم، ثم يتواري، ثم يطلع فيقول: ألا تتبعون الناس! فيقولون: نعوذ بالله منك، الله ربنا، وهذا مكاننا حتى نرى ربنا، ويشبهم». قالوا: وهل نراه يا رسول الله ؟ قال: «فإنكم لا تمارون في رؤيته تلك الساعة، ثم يتواري ثم يطلع عليهم فيعرفهم نفسه، ثم يقول: أنا ربكم فاتبعوني ، فيقوم المسلمون ويوضع الصراط »^(٢).

(١) البخارى فى التوحيد (٧٤٣٩) ومسلم فى الإيمان (٣٠٢/١٨٣) .

(٢) الترمذى فى صفة الجنة (٢٥٥٧) وقال: «هذا حديث حسن صحيح».

/ وأبين من هذا كله - في أن الرؤية الأولى عامة لأهل الموقف: حديث أبي رزين العقيلي - الحديث الطويل - قد رواه جماعة من العلماء وتلقاه أكثر المحدثين بالقبول، وقد رواه ابن خزيمة في «كتاب التوحيد» وذكر أنه لم يحتج فيه إلا بالأحاديث الثابتة، قال فيه رسول الله ﷺ: «فتخرجون من الأصوى ومن مصارعكم، فتنتظرون إليه وينظر إليكم». قال: قلت: يا رسول الله، كيف وهو شخص واحد ونحن ملء الأرض، ننظر إليه وينظر إلينا؟ قال: أنبتك بمثل ذلك في آلاء الله؟ الشمس والقمر آية منه صغيرة ترونهما في ساعة واحدة ويريانكم، ولا تضامون في رؤيتهما، ولعمر إلهك لهو على أن يراكم وترونه أقدر منهما على أن يراكم وتروهما». قلت: يا رسول الله، فما يفعل بنا ربنا إذا لقيناه؟ قال: «تعرضون عليه بادية له صفحاتكم، ولا يخفى عليه منكم خافية، فيأخذ ربك بيده غرفة من الماء فينضح بها قبلكم، فلعمر إلهك ما يخطئ وجه واحد منكم قطرة، فأما المؤمن فتدفع وجهه مثل الرابطة البيضاء، وأما الكافر فتخطمه مثل الحُمَم الأسود، ألا ! ثم ينصرف نبيكم ﷺ فيمر على أثره الصالحون» - أو قال -: «ينصرف على أثره الصالحون، قال: فيسلكون جسراً من النار» وذكر حديث «الصراط»^(١).

وقد روى أهل السنن، قطعة من حديث أبي رزين بإسناد جيد عن أبي رزين قال: قلت: يا رسول الله، أكلنا يرى ربه يوم القيامة، وما آية ذلك في خلقه؟ قال: «يا أبا رزين، أليس كلكم يرى القمر مخلياً به؟» قلت: بلى. قال: «فالله أعظم»^(٢). / فهذا الحديث فيه أن قوله: «تنظرون إليه وينظر إليكم» عموم لجميع الخلق، كما دل عليه سياقه. وروى ابن خزيمة عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - مرفوعاً إلى النبي ﷺ قال: «والله ما منكم من أحد إلا سيخلو الله به كما يخلو أحدكم بالقمر ليلة البدر - أو قال ليلة - يقول: ابن آدم، ما غرك بي؟ ابن آدم، ما عملت فيما علمت؟ ابن آدم، ماذا أحببت المرسلين؟»^(٣).

فهذه أحاديث مما يستمسك بها هؤلاء، فقد تمسك بعضهم بقوله سبحانه وتعالى: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً ﴾ واعتقدوا أن الضمير عائد إلى الله، وهذا غلط؛ فإن الله - سبحانه وتعالى - قال: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ . فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيَّتْ وَجْهُهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدْعُونَ ﴾ [المالك: ٢٥-٢٧]، فهذا يبين أن الذي رآوه هو الوعد، أي: الموعود به من العذاب، ألا تراه يقول: ﴿ وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدْعُونَ ﴾.

(٢) ابن ماجه فى المقدمة (١٨٠) وأحمد ٤/ ١١، ١٢.

(١) ابن خزيمة فى التوحيد ١/ ٤٦٠ (٢٧١).

(٣) ابن خزيمة فى التوحيد ١/ ٤٢٠ (٢٤٥).

وتمسكوا بأشياء باردة، فهموها من القرآن ليس فيها دلالة بحال.

وأما الذين خصوا بالرؤية أهل التوحيد في الظاهر - مؤمنهم ومنافقهم - فاستدلوا بحديث أبي هريرة وأبي سعيد المتقدمين كما ذكرناهما، وهؤلاء الذين يثبتون رؤيته لكافر ومنافق إنما يثبتونها مرة واحدة أو مرتين للمنافقين رؤية تعريف ، ثم يحتجب عنهم بعد ذلك في العرصة.

٦/٤٩٩ / وأما الذين نفوا الرؤية مطلقاً على ظاهره المأثور عن المتقدمين، فاتباع لظاهر قوله: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥]، روى ابن بطة بإسناده عن أشهب قال: قال رجل لملك: يا أبا عبد الله، هل يرى المؤمنون ربهم يوم القيامة؟ فقال مالك: لو لم ير المؤمنون ربهم يوم القيامة لم يعير الله الكفار بالحجاب، قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ وعن المزني قال: سمعت ابن أبي هرم يقول: قال الشافعي: في كتاب الله: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ دلالة على أن أولياءه يرونه على صفته.

وعن حنبل بن إسحاق قال: سمعت أبا عبد الله - يعني أحمد بن حنبل - يقول: أدركت الناس وما ينكرون من هذه الأحاديث شيئاً - أحاديث الرؤية - وكانوا يحدثون بها على الجملة ، يبرونها على حالها غير منكرين لذلك ولا مرتابين، قال أبو عبد الله: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ فلا يكون حجاب إلا لرؤية، فأخبر الله أن من شاء الله ومن أراد فإنه يراه، والكفار لا يرونه . وقال: قال الله: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ . إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣].

والأحاديث التي تروى في النظر إلى الله حديث جرير بن عبد الله وغيره «تنظرون إلى ربكم» أحاديث صحاح، وقال: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] النظر إلى الله. قال أبو عبد الله: أحاديث الرؤية نؤمن بها ونعلم أنها حق ، ونؤمن بأننا نرى ربنا يوم القيامة ، لا نشك فيه ولا نرتاب.

٦/٥٠٠ قال: وسمعت أبا عبد الله يقول: من زعم أن الله لا يرى في الآخرة فقد كفر وكذب بالقرآن ، ورد على الله - تعالى - أمره، يستتاب فإن تاب وإلا قتل. قال حنبل: قلت لأبي عبد الله في أحاديث الرؤية، فقال: صحاح، هذه نؤمن بها ونقر بها، وكل ما روى عن النبي ﷺ بإسناد جيد أقرنا به .

قال أبو عبد الله: إذا لم نقر بما جاء عن النبي ﷺ ودفعناه ردنا على الله أمره، قال الله: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧].

وكذلك قال أبو عبد الله الماحِشُونَ - وهو من أقران مالك - في كلام له : فورب السماء والأرض ليجعل الله رؤيته يوم القيامة للمخلصين ثواباً ، فتتضرُّ بها وجوههم دون المجرمين ، وتفلج بها حجتهم على الجاحدين ؛ جهنم وشيعته ، وهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ، لا يرونه كما زعموا أنه لا يرى ، ولا يكلمهم ، ولا ينظر إليهم ولهم عذاب أليم ، كيف لم يعتبروا ؟! يقول الله تعالى : ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ﴾ [المطففين: ١٥] أفيظن أن الله يقصيههم ويعنتهم ويعذبهم بأمر يزعم الفاسق أنه وأوليأؤه فيه سواء ؟

ومثل هذا الكلام كثير في كلام غير واحد من السلف ، مثل وكيع بن الجراح وغيره . وقال القاضي أبو يعلى وغيره : كانت الأمة في رؤية الله بالأبصار على قولين : منهم المحيل للرؤية عليه ، وهم المعتزلة ، والنجارية ، وغيرهم من الموافقين لهم على ذلك ، والفرق الآخر أهل الحق والسلف من هذه / الأمة متفقون على أن المؤمنين يرون الله في المعاد ، وأن الكافرين لا يرونه ، فثبت بهذا إجماع الأمة - ممن يقول بجواز الرؤية وممن ينكرها - على منع رؤية الكافرين لله ، وكل قول حادث بعد الإجماع فهو باطل مردود .

٦/٥٠١

وقال هو وغيره - أيضاً : - الأخبار الواردة في رؤية المؤمنين لله إنما هي على طريق البشارة ، فلو شاركهم الكفار في ذلك بطلت البشارة ، ولا خلاف بين القائلين بالرؤية في أن رؤيته من أعظم كرامات أهل الجنة .

قال : وقول من قال : إنما يُرى نفسه عقوبة لهم وتحسيراً على فوات دوام رؤيته ، ومنعهم من ذلك - بعد علمهم بما فيها من الكرامة والسرور - يوجب أن يدخل الجنة الكفار ، ويرى ما فيها من الخور والولدان ، ويطعمهم من ثمارها ويسقيهم من شرابها ، ثم يمنعهم من ذلك ليعرفهم قدر ما منعوا منه ، ويكثر تحسرههم وتلفههم على منع ذلك بعد العلم بفضيلته .

والعمدة قوله سبحانه : ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ﴾ ، فإنه يعم حجبتهم عن ربهم في جميع ذلك اليوم ، وذلك اليوم يوم ﴿ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [المطففين: ٦] ، وهو يوم القيامة ، فلو قيل : إنه يحجبهم في حال دون حال لكان تخصيصاً للفظ بغير موجب ، ولكان فيه تسوية بينهم وبين المؤمنين ؛ فإن الرؤية لا تكون دائمة للمؤمنين ، والكلام خرج مخرج بيان عقوبتهم بالحجب وجرائهم به . فلا يجوز أن يساويهم المؤمنون في عقاب ولا جزاء سواء ، فعلم أن الكافر محجوب على الإطلاق بخلاف المؤمن ، وإذا كانوا في عرصة / القيامة محجوبين فمعلوم أنهم في النار أعظم حجباً ، وقد قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَصْلُ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ٧٢] ، وقال :

٦/٥٠٢

﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ [طه: ١٢٤]، وإطلاق وصفهم بالعمى ينافي الرؤية التي هي أفضل أنواع الرؤية .

فبالجملة ، فليس مقصودي بهذه الرسالة الكلام المستوفى لهذه المسألة فإن العلم كثير، وإنما الغرض بيان أن هذه المسألة ليست من المهمات التي ينبغي كثرة الكلام فيها، وإيقاع ذلك إلى العامة والخاصة حتى يبقى شعاراً، ويوجب تفريق القلوب، وتشتت الأهواء .

وليست هذه المسألة فيما علمت مما يوجب المهاجرة ، والمقاطعة ، فإن الذين تكلموا فيها قبلنا عامتهم أهل سنة واتباع، وقد اختلف فيها من لم يتهاجروا ويتقاطعوا، كما اختلف الصحابة - رضي الله عنهم - والناس بعدهم - في رؤية النبي ﷺ ربه في الدنيا، وقالوا فيها كلمات غليظة، كقول أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - : من زعم أن محمداً رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية . ومع هذا فما أوجب هذا النزاع تهاجر - ولا تقاطعاً .

وكذلك ناظر الإمام أحمد أقواماً من أهل السنة في مسألة الشهادة للعشرة بالجنة، حتى ألت المناظرة إلى ارتفاع الأصوات، وكان أحمد وغيره يرون الشهادة، ولم يهجروا من امتنع من الشهادة ، إلى مسائل نظير هذه كثيرة .

والمختلفون في هذه المسألة أعذر من غيرهم، أما الجمهور فعذرهم / ظاهر كما دل ٦/٥٠٣ عليه القرآن، وما نقل عن السلف، وأن عامة الأحاديث الواردة في الرؤية لم تنص إلا على رؤية المؤمنين ، وأنه لم يبلغهم نص صريح برؤية الكافر ، وجدوا الرؤية المطلقة قد صارت دالة على غاية الكرامة ونهاية النعيم .

وأما المثبتون عموماً وتفصيلاً، فقد ذكرت عذرهم، وهم يقولون: قوله: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥] هذا الحجب بعد المحاسبة، فإنه قد يقال: حجب فلائاً عني، وإن كان قد تقدم الحجب نوع رؤية وهذا حجب عام متصل ، وبهذا الحجب يحصل الفرق بينهم وبين المؤمنين، فإنه - سبحانه وتعالى - يتجلى للمؤمنين في عرصات القيامة بعد أن يحجب الكفار كما دلت عليه الأحاديث المتقدمة، ثم يتجلى لهم في الجنة عموماً وخصوصاً دائماً أبداً سرمداً .

ويقولون: إن كلام السلف مطابق لما في القرآن، ثم إن هذا النوع من الرؤية الذي هو عام للخلائق قد يكون نوعاً ضعيفاً ليس من جنس الرؤية التي يختص بها المؤمنون، فإن الرؤية أنواع متباينة تبايناً عظيماً لا يكاد ينضبط طرفاها .

وهنا آداب تحجب مراعاتها:

منها : أن من سكت عن الكلام في هذه المسألة ولم يدع إلى شيء فإنه لا يحل هجره، وإن كان يعتقد أحد الطرفين ، فإن البدع التي هي أعظم منها لا يهجر فيها إلا الداعية، دون الساكت، فهذه أولى .

٦/٥٠٤ / ومن ذلك: أنه لا ينبغي لأهل العلم أن يجعلوا هذه المسألة محنة وشعاراً يفضلون بها بين إخوانهم وأضدادهم ، فإن مثل هذا مما يكرهه الله ورسوله .

وكذلك لا يفتاحوا فيها عوام المسلمين الذين هم في عافية وسلام عن الفتن ولكن إذا سئل الرجل عنها أو رأى من هو أهل لتعريفه ذلك ألقى إليه مما عنده من العلم ما يرجو النفع به ، بخلاف الإيمان بأن المؤمنين يرون ربهم في الآخرة فإن الإيمان بذلك فرض واجب؛ لما قد تواتر فيها عن النبي ﷺ وصحابته وسلف الأمة .

ومن ذلك: أنه ليس لأحد أن يطلق القول بأن الكفار يرون ربهم من غير تقييد، لوجهين:

أحدهما : أن الرؤية المطلقة قد صار يفهم منها الكرامة والثواب، ففي إطلاق ذلك إيهام وإيحاش ، وليس لأحد أن يطلق لفظاً يوهم خلاف الحق إلا أن يكون مأثوراً عن السلف وهذا اللفظ ليس مأثوراً .

الثاني: أن الحكم إذا كان عاماً في تخصيص بعضه باللفظ خروج عن القول الجميل فإنه يمنع من التخصيص ، فإن الله خالق كل شيء ومريد لكل حادث ومع هذا يمنع الإنسان أن يخص ما يستقذر من المخلوقات وما يستقبحه الشرع من الحوادث، بأن يقول على الانفراد : يا خالق الكلاب ، ويا مريداً للزنا ، ونحو ذلك ، بخلاف ما لو قال: ياخالق كل شيء، ويا من كل شيء يجري بمشيئته، / فكذلك هنا لو قال: ما من أحد إلا سيخلو به ربه وليس بينه وبينه حاجب ولا ترجمان، أو قال: إن الناس كلهم يحشرون إلى الله فينظر إليهم وينظرون إليه، كان هذا اللفظ مخالفاً في الإيهام للفظ الأول. ٦/٥٠٥

فلا يخرج أحد عن الألفاظ المأثورة، وإن كان قد يقع تنازع في بعض معناها، فإن هذا الأمر لا بد منه، فالأمر كما قد أخبر به نبينا ﷺ والخير كل الخير في اتباع السلف الصالح والاستكثار من معرفة حديث رسول الله ﷺ والتفقه فيه، والاعتصام بحبل الله وملازمة ما يدعو إلى الجماعة والألفة، ومجانبة ما يدعو إلى الخلاف والفرقة، إلا أن يكون أمراً بيئاً قد أمر الله ورسوله فيه بأمر من المجانبة فعلى الرأس والعين .

وأما إذا اشتبه الأمر : هل هذا القول أو الفعل مما يعاقب صاحبه عليه أو ما لا يعاقب؟ فالواجب ترك العقوبة؛ لقول النبي ﷺ : « ادروا الحدود بالشبهات، فإنك إن تخطئ في العفو خير من أن تخطئ في العقوبة » رواه أبو داود (١)، ولا سيما إذا آل الأمر إلى شر طويل ، واقتراق أهل السنة والجماعة، فإن الفساد الناشئ في هذه الفرقة، أضعاف الشر الناشئ من خطأ نفر قليل في مسألة فرعية.

وإذا اشتبه على الإنسان أمر فليدع بما رواه مسلم في صحيحه عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: كان رسول الله ﷺ إذا قام إلى الصلاة يقول: « اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم » (٢).

وبعد هذا: فأسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يوفقنا وإياكم لما يحبه ويرضاه من القول والعمل، ويرزقنا اتباع هدى نبيه ﷺ باطنًا وظاهرًا، ويجمع على الهدى شملنا، ويقرن بالتوفيق أمرنا، ويجعل قلوبنا على قلب خيارنا، ويعصمنا من الشيطان، ويعيذنا من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا.

وقد كتبت هذا الكتاب وتحريت فيه الرشد، وما أريد إلا الإصلاح ما استطعت، وما توفيقي إلا بالله، ومع هذا فلم أحط علمًا بحقيقة ما بينكم ولا بكيفية أموركم، وإنما كتبت على حسب ما فهمت من كلام من حدثني، والمقصود الأكبر إنما هو إصلاح ذات بينكم وتأليف قلوبكم.

وأما استيعاب القول في هذه المسألة وغيرها وبيان حقيقة الأمر فيها، فرما أقول أو أكتب في وقت آخر إن رأيت الحاجة ماسة إليه، فإنني في هذا الوقت رأيت الحاجة إلى انتظام أمركم أوكد.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

(١) الترمذي في الحدود (١٤٢٤) وقال: «حديث عائشة لا نعرفه مرفوعًا إلا من حديث محمد بن ربيعة عن يزيد ابن زياد الدمشقي عن الزهري عن عروة عن عائشة عن النبي ﷺ» والبيهقي في السنن الكبرى ٢٣٨/٨، ولم أعثر عليه في أبي داود.

(٢) مسلم في صلاة المسافرين (٧٧٠/٢٠٠) والترمذي في الدعوات (٣٤٢٠).

/ قال الشيخ شمس الدين ابن القيم:

سمعت شيخ الإسلام أحمد بن تيمية يقول في قوله ﷺ: «نور أنى أراه»^(١): معناه:

كان ثم نور ، وحال دون رؤيته نور فأنى أراه؟ قال: ويدل عليه أن في بعض ألفاظ الصحيح هل رأيت ربك؟ فقال: «رأيت نوراً»^(٢).

وقد أعضل أمر هذا الحديث على كثير من الناس، حتى صحفه بعضهم فقال: «نوراً إني أراه» على أنها باء النسب، والكلمة كلمة واحدة. وهذا خطأ لفظاً ومعنى، وإنما أوجب لهم هذا الإشكال والخطأ أنهم لما اعتقدوا أن رسول الله ﷺ رأى ربه ، وكان قوله: «أنى أراه؟» كالإنكار للرؤية ، حاروا في الحديث ، وردّه بعضهم باضطراب لفظه ، وكل هذا عدول عن موجب الدليل.

وقد حكى عثمان بن سعيد الدارمي في كتاب «الرد له» إجماع الصحابة، على أنه ﷺ لم ير ربه ليلة المعراج، وبعضهم استثنى ابن عباس من ذلك، وشيخنا يقول: ليس ذلك بخلاف في الحقيقة ، فإن ابن عباس لم يقل / رآه بعيني رأسه ، وعليه اعتمد أحمد في إحدى الروايتين، حيث قال: إنه رآه ، لم يقل: بعيني رأسه.

٦/٥٠٨

ولفظ أحمد كلفظ ابن عباس.

ويدل على صحة ما قال شيخنا في معنى حديث أبي ذر: قوله ﷺ في الحديث الآخر: «حجابه النور»^(٣) فهذا النور هو - والله أعلم - النور المذكور في حديث أبي ذر: «رأيت نوراً».

(١) مسلم في الإيمان (١٧٨/٢٩١)، والترمذي في تفسير القرآن (٣٢٨٢) وقال: «حديث حسن»، وأحمد ١٥٧/٥، ١٧١، كلهم عن أبي ذر.

(٢) مسلم في الإيمان (١٧٨/٢٩٢)، وأحمد ١٤٧/٥، كلاهما عن أبي ذر.

(٣) مسلم في الإيمان (١٧٩/٢٩٣)، وابن ماجه في المقدمة (١٩٥)، وأحمد ٤٠٥/٤، كلهم عن أبي موسى.

فصل

وأما الرؤية ، فالذي ثبت في الصحيح عن ابن عباس أنه قال: « رأى محمد ربه بفؤاده مرتين »^(١)، وعائشة أنكرت الرؤية . فمن الناس من جمع بينهما فقال: عائشة أنكرت رؤية العين ، وابن عباس أثبت رؤية الفؤاد .

والألفاظ الثابتة عن ابن عباس هي مطلقة ، أو مقيدة بالفؤاد ، تارة يقول: رأى محمد ربه ، وتارة يقول: رآه محمد ، ولم يثبت عن ابن عباس لفظ صريح بأنه رآه بعينه .

وكذلك الإمام أحمد ، تارة يطلق الرؤية ، وتارة يقول: رآه بفؤاده ، ولم يقل أحد : إنه سمع أحمد يقول: رآه بعينه ، لكن طائفة من أصحابه سمعوا بعض كلامه المطلق ، ففهموا منه رؤية العين ، كما سمع بعض الناس مطلق كلام ابن عباس ففهم منه رؤية العين .

وليس في الأدلة ما يقتضي أنه رآه بعينه ، ولا ثبت ذلك عن أحد من / الصحابة ، ولا في الكتاب والسنة ما يدل على ذلك ، بل النصوص الصحيحة على نفيه أدل ، كما في صحيح مسلم عن أبي ذر قال: سألت رسول الله ﷺ هل رأيت ربك؟ فقال: «نور، أنى أراه»^(٢) .

وقد قال تعالى : ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾ [الإسراء: ١] ، ولو كان قد أراه نفسه بعينه لكان ذكر ذلك أولى .

وكذلك قوله : ﴿أَفْتَمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَوْنَ﴾ [النجم: ١٢] ، ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾ [النجم: ١٨] ولو كان رآه بعينه لكان ذكر ذلك أولى .

وفي الصحيحين عن ابن عباس في قوله : ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ﴾ [الإسراء: ٦٠] ، قال: هي رؤيا عين ، أريها رسول الله ﷺ

(١) مسلم في الإيمان (٢٨٥/١٧٦) ، والترمذي في تفسير القرآن (٣٢٧٩) وقال: « حديث حسن غريب من هذا الوجه » ، والنسائي في الكبرى في التفسير ٤٧٢/٦ (١/١١٥٣٥) .

(٢) سبق تخريجه ص ٣٠٤ .

ليلة أسرى به، وهذه «رؤيا الآيات»^(١) لأنه أخبر الناس بما رآه بعينه ليلة المعراج، فكان ذلك فتنة لهم، حيث صدقه قوم وكذبه قوم، ولم يخبرهم بأنه رأى ربه بعينه وليس في شيء من أحاديث المعراج الثابتة ذكر ذلك، ولو كان قد وقع ذلك لذكره كما ذكر ما دونه.

وقد ثبت بالنصوص الصحيحة واتفاق سلف الأمة، أنه لا يرى الله أحد في الدنيا بعينه، إلا ما نزع فيه بعضهم من رؤية نبينا محمد ﷺ خاصة، واتفقوا على أن المؤمنين يرون الله يوم القيامة عياناً، كما يرون الشمس والقمر.

6/511 / واللجنة تجوز مطلقاً لمن لعنه الله ورسوله ، وأما لعنة المعين فإن علم أنه مات كافراً جازت لعنته .

وأما الفاسق المعين ، فلا تنبغي لعنته ؛ لنهي النبي ﷺ أن يلعن «عبد الله بن حمار» الذي كان يشرب الخمر^(٢)، مع أنه قد لعن شارب الخمر عموماً، مع أن في لعنة المعين - إذا كان فاسقاً أو داعياً إلى بدعة - نزاع، وهذه المسألة قد بسط الكلام عليها.

(١) البخاري في التفسير (٤٧١٦) ، والترمذي في تفسير القرآن (٣١٣٤).

(٢) البخاري في الحدود (٦٧٨٠) .

٦/٥١٢ / سئل : عن أقوام يدعون أنهم يرون الله بأبصارهم في الدنيا ، وأنهم يحصل لهم
بغير سؤال ما حصل لموسى بالسؤال .

فأجاب :

أجمع سلف الأمة وأئمتها على أن المؤمنين يرون الله بأبصارهم في الآخرة ، وأجمعوا
على أنهم لا يرونه في الدنيا بأبصارهم ، ولم يتنازعوا إلا في النبي ﷺ .

وثبت عنه في الصحيح أنه قال : «واعلموا أن أحداً منكم لن يرى ربه حتى يموت»^(١)

ومن قال من الناس : إن الأولياء أو غيرهم يرى الله بعينه في الدنيا فهو مبتدع ضال ،
مخالف للكتاب والسنة ، وإجماع سلف الأمة ، لا سيما إذا ادعوا أنهم أفضل من موسى ،
فإن هؤلاء يستتابون ، فإن تابوا وإلا قتلوا ، والله أعلم .

(١) مسلم في الفتن وأشراط الساعة (٩٥/١٦٩) ، والترمذي في الفتن (٢٢٣٥) وقال : « حسن صحيح » ، كلاهما عن
عبد الله بن عمر .

/ سئل الشيخ الإمام العلامة شيخ الإسلام تقي الدين أبو العباس أحمد بن تيمية - رضي الله عنه :

ما تقول السادة العلماء أئمة الدين - رضي الله عنهم أجمعين - في الحديث الذي ذكره البخاري مستشهداً به في صحيحه، وهو قوله ﷺ: «إن الله - عز وجل - ينادي بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب: أنا الملك أنا الديان»^(١)، وفي قوله - عليه السلام - «يقول الله - عز وجل: يا آدم، قم فابعث بعث النار»، «فينادي بصوت: إن الله يأمرك أن تبعث بعث النار»^(٢) الحديث المشهور، فإن بعض الناس قال: لا يثبت لله صفة بحديث واحد. فما الجواب عن هذه المسألة من الكتاب والسنة، والآثار، والنظر، والأمثال، والنظائر؟ وإسطوا القول في ذلك، أفتونا مأجورين؟

فأجاب :

الحمد لله رب العالمين. أصل هذا الباب ألا يتكلم الإنسان إلا بعلم؛ فإن هذا وإن كان مأموراً به مطلقاً فهو في هذا الباب أوجب، قال الله تعالى: ﴿قُلْ / إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٦٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ [النساء: ١٧١]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يُوْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ [الأعراف: ١٦٩].

وكما أن الإنسان لا يجوز له أن يثبت شيئاً إلا بعلم، فلا يجوز له أن ينفي شيئاً إلا بعلم؛ ولهذا كان النافي عليه الدليل؛ كما أن المثبت عليه الدليل. وما يجب أن يعرف أن: أدلة الحق لا تتناقض، فلا يجوز إذا أخبر الله بشيء - سواء كان الخبر إثباتاً أو نفياً - أن يكون في إخباره ما يناقض ذلك الخبر الأول، ولا يكون فيما يعقل بدون الخبر ما يناقض

(١) البخاري في التوحيد تعليقاً (الفتح ١٣/٤٥٣).

(٢) البخاري في الرقاق (٦٥٣٠)، ومسلم في الإيمان (٣٧٩/٢٢٢)، كلاهما عن أبي سعيد الخدري.

ذلك الخبر المعقول، فالأدلة المقتضية للعلم لا يجوز أن تتناقض، سواء كان الدليلان سميعين أو عقليين، أو كان أحدهما سميعاً والآخر عقلياً، ولكن التناقض قد يكون فيما يظنه بعض الناس دليلاً وليس بدليل، كمن يسمع خبراً فيظنه صحيحاً ولا يكون كذلك، أو يفهم منه ما لا يدل عليه، أو تقوم عنده شبهة يظنها دليلاً عقلياً، وتكون باطلة التبس عليه فيها الحق بالباطل، فيكذب بها ما أخبر الله به ورسوله، وهذا من أسباب ضلال من ضل من مكذبي الرسل، إما مطلقاً كالذين كذبوا جميع الرسل، كقوم نوح وعاد وثمود ونحوهم، وإما من آمن ببعض وكفر/ ببعض كمن آمن من أهل الكتاب ببعض الرسل دون بعض، ومن آمن من الفلاسفة ببعض ما جاءت به الرسل دون بعض، ومن أهل البدع من أهل الملل المسلمين واليهود والنصارى من أتوا من هذا الوجه، فإنه قامت عندهم شبهات ظنوا أنها تنفي ما أخبرت به الرسل من أسماء الله تعالى وصفاته، وظنوا أن الواجب حينئذ تقديم ما رأوه على النصوص؛ لشبهات قد بسط الكلام عليها في غير هذا الموضع، وبين ضلال من ضل من الجهمية المتفلسفة والمعتزلة ومن وافقهم من بعض ضلالهم.

٦/٥١٥

وجماع القول في إثبات الصفات : هو القول بما كان عليه سلف الأمة وأئمتها، وهو أن يوصف الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله، ويصان ذلك عن التحريف والتمثيل، والتكليف والتعطيل؛ فإن الله ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، فمن نفى صفاته كان معطلاً، ومن مثل صفاته بصفات مخلوقاته كان ممثلاً، والواجب إثبات الصفات ونفي مماثلتها لصفات المخلوقات، إثباتاً بلا تشبيه وتنزيهاً بلا تعطيل، كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، فهذا رد على المثلة، ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، رد على المعطلة فالممثل يعبد صنماً والمعطل يعبد عدماً.

وطريقة الرسل - صلوات الله عليهم - إثبات صفات الكمال لله على وجه التفصيل، وتنزيهه بالقول المطلق عن التمثيل، فطريقتهم إثبات مفصل ونفي مجمل، وأما الملاحظة من المتفلسفة، والقرامطة والجهمية، ونحوهم، فبالعكس؛ نفي مفصل، وإثبات مجمل.

٦/٥١٦

/ قاله تعالى أخبر في كتابه: إنه ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الشورى: ١٢]، وإنه ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٩]، وإنه ﴿غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، ﴿عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، ﴿سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾، ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الفرقان: ٥٩]، [السجدة: ٤] وأنه يحب المتقين، ويرضى عن المؤمنين، ويغضب على الكافرين، وأنه فعال لما يريد، وأنه كلم موسى تكليماً وناداه من جانب الطور الأيمن وقربه نجياً، وأنه ينادى عباده فيقول: ﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القصص: ٦٢]، وأمثال ذلك، وقال تعالى:

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]، ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤].

فبين بذلك أن الله لا مثل له ولا سمى ولا كفو ، فلا يجوز أن يكون شيء من صفاته مماثلاً لشيء من صفات المخلوقات ، ولا أن يكون المخلوق مكافئاً ولا مساوياً له في شيء من صفاته سبحانه وتعالى .

وأما الملاحظة فقلبوا الأمر ، وأخذوا يشبهونه بالمعدومات والممتنعات والمتناقضات ، فغلاتهم يقولون: لا حي ولا ميت، ولا عالم ولا جاهل، ولا سميع ولا أصم، ولا متكلم ولا أخرس، بل قد يقولون: لا موجود ولا معدوم، ولا هو شيء ولا ليس بشيء. وآخرون يقولون: لا داخل العالم ولا خارجه ، ولا مابين للعالم ولا حال فيه ، وأمثال هذه العبارات التي ينفون بها الأمور المتقابلة التي لا يمكن انتفاؤها معاً ، كما يقول محققو هؤلاء: إنه وجود مطلق . ثم منهم من يقول: هو وجود مطلق ، إما بشرط الإطلاق - كما يقوله « ابن/ سينا » وأتباعه - مع أنهم قد قرروا في «المنطق» ما هو معلوم لكل العقلاء: إن المطلق بشرط الإطلاق لا يكون موجوداً في الأعيان، بل في الأذهان، وكان حقيقة قولهم: إن الموجود الواجب ليس موجوداً في الخارج ، مع أنهم مقرون بما لم يتنازع فيه العقلاء من أن الوجود لا بد فيه من موجود واجب الوجود بنفسه.

٦/٥١٧

ومنهم من يقول: هو مطلق لا بشرط - كما يقوله القنوني وأمثاله - فهؤلاء يجعلونه الوجود الذي يصدق على الواجب والممكن، والواحد والكثير، والذهني والخارجي، والقديم والمحدث، فيكون : إما صفة للمخلوقات، وإما جزءاً منها، وإما عينها.

وأولئك يجعلونه الوجود المجرد الذي لا يتقيد بقيد، فلزمهم ألا يكون واجباً ولا ممكناً، ولا عالماً ولا جاهلاً ، ولا قادراً ولا عاجزاً، وهم يقولون مع ذلك : إنه عاقل ومعقول وعاشق ومعشوق ، فيتناقضون في ضلالهم ، ويجعلون الواحد اثنين ، والاثنين واحداً ، كما أنهم يريدون أن يشتوا وجوداً مجرداً عن كل نعت ، مطلقاً عن كل قيد ، وهم - مع ذلك - يخصصونه بما لا يكون لسائر الموجودات؛ ولهذا يقول بعضهم : إن العالم والعلم واحد، وإنه نفس العلم، فيجعلون العالم بنفسه هو العالم بغيره، والموصوف هو الصفة، ويتناقضون أشد من تناقض النصارى في تثليثهم واتحادهم للذين أفسدوا بهما الإيمان بالتوحيد، والرسالة.

/ وكلام ابن سبعين وابن رشد الحفيد، وابن التومرت، وابن عربي الطائي وأمثالهم من الجهمية - نفاة الصفات - يدور على هذا الأصل - كما قد بسط في موضعه - ويوجد ما

٦/٥١٨

يقارب هذا الاتحاد في كلام كثير من أهل الكلام والتصوف الذين دخل عليهم بعض شعب الاتحاد ولم يعلموا ما فيها من الفساد .

والقول في مسألة كلام الله - تعالى - واضطراب الناس فيها ، مبنى على هذا الأصل فإنها من مسائل الصفات ، وفيها من التفرع ما امتازت به على سائر مسائل الصفات ، وقد اضطرب الناس فيها اضطراباً كثيراً ، قد بيناه في غير هذا الموضع ، وبيننا أن سلف الأمة وأئمتها كانوا على الإيمان الذي بعث الله به نبيه ﷺ ، يصفون الله بما وصف به نفسه ، وبما وصفه به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكيف ولا تمثيل . ويقولون : إن القرآن كلام الله - تعالى - ويصفون الله بما وصف به نفسه من التكليم والمناجاة والمناداة ، وما جاءت به السنن والآثار موافقة لكتاب الله - تعالى .

فلم يكن في الصحابة والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين ، وسائر أئمة المسلمين من قال : إن كلام الله مخلوق خلقه في غيره ولم يقم به كلام ، كما قالته الجهمية من المعتزلة وغيرهم ، بل لما أظهروا هذه البدعة اشتد نكير السلف ، والأئمة لها ، وعرفوا أن حقيقتها : أن الله لا يتكلم ولا يأمر ولا ينهى !! إذ كان الكلام وسائر الصفات إنما يعود حكمها إلى من قامت به .

٦/٥١٩ / فلو خلق كلاماً في الشجرة ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾ [طه : ١٤] ، لكان ذلك كلاماً للشجرة ، وكانت هي القائلة : ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَأَعْبُدْنِي﴾ ، بمنزلة الكلام الذي تنطق به الجلود حين قال لها أصحابها : ﴿لَمْ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [فصلت : ٢٢] ، وكذلك قال تعالى : ﴿وَسَخَرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالِ يُسَبِّحْنَ﴾ [الأنبياء : ٧٩] ، فلو كان تكلمه بمعنى : أنه خلق كلاماً في غيره ، لكان كل كلام في الوجود كلامه ؛ لأنه خالقه ، وكذلك صرح بذلك الحلوية من الجهمية كما يذكر عن ابن عربي صاحب «الفصوص» و«الفتوحات» :

وكل كلام في الوجود كلامه سواء علينا نثره ونظامه

وقد علم أن الله إذا خلق في بعض الأعيان علماً ، أو قدرة ، أو حركة ، أو إرادة ، كان ذلك المحل هو العالم ، القادر المتحرك المرید ، فلو لم يكن كلامه إلا ما يخلقه في غيره لكان الغير هو المتكلم به ، وهذا مبسوط في موضعه .

وشبهة نفاة الكلام المشهورة : أنهم اعتقدوا أن الكلام صفة من الصفات لا تكون إلا بفعل من الأفعال القائمة بالمتكلم ، فلو تكلم الرب لقامت به الصفات والأفعال وزعموا أن

ذلك محتج. قالوا: لأننا إنما استدللنا على حدوث العالم بحدوث الأجسام، واستدللنا على حدوثها بما قام بها من الأعراض التي هي الصفات والأفعال، فلو قام بالرب الصفات والأفعال للزم أن يكون محدثاً، وبطل الدليل الذي استدللنا به على حدوث العالم، وإثبات الصانع.

٦/٥٢. / فقال لهم أهل السنة والإثبات: دليلكم هذا دليل سبتدع في الشرع لم يستدل به أحد من سلف الأمة وأئمتها، بل قد ذكر الأشعري في رسالته إلى أهل الثغر أنه دليل محرم في دين الرسل، وأنه لا يجوز بناء دين المسلمين عليه، وذكر غيره: أنه باطل في العقل، كما هو محرم في الشرع، وأن ذم السلف والأئمة لأهل الكلام والجهمية، وأهل الخوض في الأعراض والأجسام أعظم ما قصدوا به ذم سئل هذا الدليل، كما قد بسط الكلام على ذلك في موضعه.

ولما ظهرت مقالة الجهمية جاء بعد ذلك أبو محمد عبد الله بن سعيد بن كلاب يوافق السلف والأئمة على إثبات صفات الله تعالى، وعلوه على خلقه وبين أن العلو على خلقه يعلم بالعقل، واستواؤه على العرش يعلم بالسمع، وكذلك جاء بعده الخارث المحاسبي وأبو العباس القلانسي وغيرهما من المتكلمين المنتسبين إلى السنة والحديث.

ثم جاء أبو الحسن الأشعري فاتبع طريقة ابن كلاب وأمثاله، وذكر في كتبه جمل مقالة أهل السنة والحديث، وأن ابن كلاب يوافقهم في أكثرها، وهؤلاء يسمون الصفاتية؛ لأنهم يثبتون صفات الله تعالى خلافاً للمعتزلة، لكن ابن كلاب وأتباعه لم يثبتوا لله أفعالا تقوم به تتعلق بمشيئته وقدرته، بل ولا غير الأفعال مما يتعلق بمشيئته وقدرته.

٦/٥٢١ فكانت المعتزلة تقول: لا تحله الأعراض والحوادث. وهم لا يريدون بالأعراض الأمراض والآفات فقط، بل يريدون بذلك الصفات، ولا يريدون / بالحوادث المخلوقات، ولا الأحداث المحيلة للمحل، ونحو ذلك - مما يريد به الناس بلفظ الحوادث - بل يريدون نفي ما يتعلق بمشيئته وقدرته من الأفعال وغيرها، فلا يجوزون أن يقوم به خلق، ولا استواء، ولا إتيان ولا مجيء، ولا تكليم، ولا مناداة، ولا مناجاة ولا غير ذلك مما وصف بأنه مريد له قادر عليه.

وابن كلاب خالفهم في قولهم: لا تقوم به الأعراض، وقال: تقوم به الصفات، ولكن لا تسمى أعراضاً، ووافقهم على ما أرادوه بقولهم: لا تقوم به الحوادث من أنه لا يقوم به أمر من الأمور المتعلقة بمشيئته.

فصار من حين فرق هذا التفريق المتسبون إلى السنة والجماعة، القائلون بأن القرآن

غير مخلوق، وأن الله يرى في الآخرة، وأن الله فوق سمواته على عرشه، بائن من خلقه على قولين ذكرهما الحارث المحاسبي وغيره.

طائفة وافقت ابن كلاب كالقلانسي، والأشعري، وأبي الحسن بن مهدي الطبري، ومن اتبعهم، فإنه وافق هؤلاء كثير من أتباع الأئمة الأربعة وغيرهم: من أصحاب مالك، والشافعي، وأحمد بن حنبل، وأبي حنيفة وغيرهم.

وكان الحارث المحاسبي يوافقه ثم قيل: إنه رجع عن موافقته، فإن أحمد بن حنبل أمر بهجر الحارث المحاسبي وغيره من أصحاب ابن كلاب لما أظهروا ذلك، كما أمر السري السقطي الجنيد - أن يتقي بعض كلام الحارث، فذكروا أن الحارث - رحمه الله - تاب من ذلك، وكان له من العلم والفضل / والزهد، والكلام في الحقائق ما هو مشهور، وحكى عنه أبو بكر الكلاباذي صاحب مقالات الصوفية: أنه كان يقول: إن الله يتكلم بصوت، وهذا يوافق قول من يقول: إنه رجع عن قول ابن كلاب. قال أبو بكر الكلاباذي: وقالت طائفة من الصوفية: كلام الله حرف وصوت وأنه لا يعرف كلام إلا كذلك، مع إقرارهم أنه صفة لله في ذاته، وأنه غير مخلوق، قال: وهذا قول الحارث المحاسبي ومن المتأخرين ابن سالم.

وبقى هذا الأصل يدور بين الناس حتى وقع بين أبي بكر بن خزيمة الملقب بإمام الأئمة، وبعض أصحابه بسبب ذلك، فإنه بلغه أنهم وافقوا ابن كلاب فنهاهم وعابهم، وطعن على مذهب ابن كلاب بما كان مشهوراً عند أئمة الحديث والسنة.

ومن ذلك الزمان تنازع المنتسبون إلى السنة: من أن الله يتكلم بصوت، أو لا يتكلم بصوت؟ فإن أتباع ابن كلاب نفوا ذلك، قالوا: لأن المتكلم بصوت يستلزم قيام فعل بالمتكلم متعلق بإرادته، والله - عندهم - لا يجوز أن يقوم به أمر يتعلق بمشيئته وقدرته: لا فعل ولا غير فعل، فقالوا: إن الله لا يتكلم بصوت، وإنما كلامه معنى واحد هو الأمر والنهي، والخبر إن عبر عنه بالعربية كان قرأناً، وإن عبر عنه بالعبرية كان تورا، وإن عبر عنه بالسريانية كان إنجيلاً.

فقال جمهور العقلاء - من أهل السنة وغير أهل السنة -: هذا القول معلوم / الفساد بضرورة العقل، كما هو مخالف للكتاب والسنة، فإننا نعلم أن التوراة إذا عبرت لم تكن هي القرآن بل معانيها ليست هي معاني القرآن، ونعلم أن القرآن إذا ترجم بالعبرية لم يصح هو التوراة المنزلة على موسى، ونعلم أن معنى آية الدين ليس هو معنى آية الكرسي، ولا معنى ﴿تَبَّتْ يُدَا أَيْ لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: ١] هو معنى ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١].

قالوا: ومن جعل الأمر والنهي صفات للكلام، لا أنواع له، فقلوله معلوم الفساد

بالضرورة ، وهذا من جنس قول القائلين بوحدة الوجود - د ، فإن من جعل الوجود واحداً بالعين وهو الواجب ، والممكن ، كان كلامه معلوم الفاد بالضرورة ، كمن جعل معاني الكلام معنى واحداً : دي الأمر ، والنهي والخبر ، لكن الكلام ينقسم إلى الإنشاء والخبر ، والإنشاء ينقسم إلى طلب الفعل ، وطلب الترك ، والخبر ينقسم إلى خبر عن النفي ، وخبر عن الإثبات ، كما أن الموجود ينقسم إلى واجب وممكن ، والممكن ينقسم إلى حي قائم بنفسه وقائم بغيره ، والقائم بغيره ينقسم إلى ما تشترط له الحياة وما لا تشترط له الحياة ، فلفظ الواحد ينقسم إلى واحد بالنوع ، وواحد بالعين .

فقول القائل : الكلام معنى واحد ، كقوله : الوجود واحد ، فإن أراد به أنه نوع واحد ، أو جنس واحد ، أو صنف واحد ، ونحو ذلك ، لم يكن ذلك مثل أن يريد أنه عين واحدة ، وذات واحدة ، وشخص واحد ، فإن هذا مكابرة / للحس ، والعقل والشرع ، وأما الأول فمراده أن بين ذلك قدراً مشتركاً ، كما أن الموجودات تشترك في مسمى الوجود ، وأنواع الكلام تشترك في مسمى الكلام ، وقد بسط هذا كله في غير هذا الموضع . ٦/٥٢٤

ثم إن طائفة أخرى لما عرفت فساد قول ابن كلاب في مسألة الكلام ، ووافقته على أصله في أن الله لا يقوم به ما يتعلق بمشيئته وقدرته ، وكان من قولها : إن القرآن كلام الله غير مخلوق ، ولم يكن عندها إلا قديم لا يتعلق بمشيئة الله وقدرته ، أو مخلوق منفصل عنه ، لزمها أن تقول : إن الله يتكلم بصوت أو أصوات قديمة أزلية لا تتعلق بمشيئته وقدرته ، وأنه لم يزل ولا يزال متصفاً بتلك الأصوات القديمة الأزلية اللازمة لذاته . وهذا القول يذكر عن أبي الحسن بن سالم ، شيخ أبي طالب المكي - إن صح عنه - لكنه قول كثير من أصحاب ابن سالم ، ومن وافقهم من أصحاب مالك والشافعي وأحمد وغيرهم .

وقالت الكرامية ، وطائفة كثيرة من المرجئة والشيعة وغيرهم : إن الله يتكلم بأصوات تقوم به تتعلق بمشيئته وقدرته ، وأنه تقوم به الحوادث المتعلقة بمشيئته وقدرته ، لكن ذلك حادث بعد أن لم يكن ، وأن الله في الأزل لم يكن متكلماً إلا بمعنى القدرة على الكلام ، وأنه يصير موصوفاً بما يحدث بقدرته وبمشيئته بعد أن لم يكن كذلك ، وهؤلاء رأوا أنهم يوافقون الجماعة في أن لله أفعالاً تقوم به تتعلق بمشيئته وقدرته ، ويقوم به غير ذلك من الإرادات والكلام الذي يتعلق بمشيئته وقدرته .

/ لكن قالوا : لا يجوز أن تتعاقب عليه الحوادث ، فإن ما تعاقبت عليه الحوادث فهو محدث ، ووافقوا المعتزلة في الاستدلال بذلك على حدوث العالم . فكما أن ابن كلاب فرق بين الأعراض والحوادث ، فرق هؤلاء في الحوادث بين تجدها ، وبين لزومها ، فقالوا بنفي لزومها له دون نفي حدوثها ، كما قالوا في المخلوقات المنفصلة : إنها تحدث بعد أن لم تكن بمشيئته وقدرته . ٦/٥٢٥

والفلاسفة الدهرية يطالبون هؤلاء كلهم بسبب حدوث الحوادث بعد أن لم تكن، وإن ذلك يستلزم الترجيح بلا مرجح، و الحوادث بلا سبب حادث، قالوا: وهو ممتنع في صريح العقل، وهذا أعظم شبههم في قدم العالم وهي المعضلة الزبّاء^(١)، والداهية الدهياء وقد ضاق هؤلاء عن جوابهم، حتى خرجوا إلى الالتزام، وقد بسطنا الكلام على ذلك في غير هذا الموضع.

وبينا الأجوبة القاطعة عن كلام الفلاسفة على طريقة السلف والأئمة، وأنه من قال بموجب نصوص القرآن والسنة أمكنه أن يناظر الفلاسفة مناظرة عقلية يقطعهم بها، ويتبين له أن العقل الصريح مطابق للسمع الصحيح.

وبينا - أيضاً - كيف تجيبهم كل طائفة من طوائف أهل القبلة؛ لأنهم أقرب إلى الحق من الفلاسفة، فيمكنهم أن يجيبوهم بالإلزام جواباً لا محيص للفلاسفة عنه، ويمكنهم أن يقولوا للفلاسفة: قولكم أظهر فساداً في الشرع والعقل من قول كل طائفة من طوائف المسلمين، فتقول لهم كل طائفة من طوائف المسلمين: / إذا لم يمكننا أن نجيبكم بجواب قاطع يحل شبهتكم غير الجواب الإلزامي إلا بموافقتكم فيما يخالف الشرع والعقل، أو موافقة إخواننا المسلمين فيما لا يخالف الشرع، ويمكن أيضاً ألا يخالف العقل - كان هذا أولى فإن الفلاسفة طمعت في طوائف أهل القبلة بما ابتدعه كل فريق، فأخذت بدعة أصحابها واحتجت بها عليهم، فأمكن صاحب ذلك القول المبتدع أن يقول: رجوعي عن هذا القول المبتدع مع موافقتي لما دل عليه الكتاب والسنة، وأقول سلف الأمة، أحب إلى من أن أوافق الفلاسفة على قول أعلم أنه كفر في الشرع، مع أن العقل أيضاً يبين فسادَه.

وأما السلف والأئمة، فلم ينقل عن أحد منهم أنه قال بقول من قال: إن القرآن مخلوق، ولا بقول من قال: إنه معنى واحد قائم بالذات هو الأمر، والنهي والخبر، وهو مدلول التوراة، والإنجيل، والقرآن، وغير ذلك من العبارات، ولا بقول من قال: إنه أصوات قديمة أزلية لا تتعلق بمشيئته وقدرته، ولا بقول من قال: إن الله كان لا يتكلم حتى أحدث لنفسه كلاماً صار به متكلماً.

وأما القول بأن أصوات العباد بالقرآن أو ألفاظهم قديمة أزلية، فهذا - أيضاً - من البدع المحدثه، التي هي أظهر فساداً من غيرها، والسلف والأئمة من أبعد الناس عن هذا القول. والعقل الصريح يعلم أن من جعل أصوات العباد قديمة أزلية، كان قوله معلوم الفساد بالضرورة.

/ ولكن أصل هذا تنازعهم في مسألة اللفظ. والمنصوص عن الإمام أحمد ونحوه من

(١) أي: العظيمة. انظر: لسان العرب، مادة «زبى».

العلماء أن من قال: إن اللفظ بالقرآن والتلاوة مخلوقة، فهو جهمي، ومن قال: إنه غير مخلوق، فهو مبتدع؛ لأن اللفظ والتلاوة يراد به الملفوظ المتلو، وذلك هو كلام الله. فمن جعل كلام الله - الذي أنزله على نبيه - مخلوقاً فهو جهمي. ويراد بذلك المصدر وصفات العباد، فمن جعل أفعال العباد وأصواتهم غير مخلوقة. فهو مبتدع ضال.

وهكذا ذكره الأشعري في كتاب المقالات عن أهل السنة والحديث قال: ويقولون: إن القرآن كلام غير مخلوق، والكلام في الوقف، واللفظ بدعة. من قال باللفظ أو الوقف فهو مبتدع. وعندهم لا يقال: اللفظ بالقرآن مخلوق، ولا يقال: غير مخلوق. وليس في الأئمة والسلف من قال: إن الله لا يتكلم بصوت، بل قد ثبت عن غير واحد من السلف والأئمة أن الله يتكلم بصوت، وجاء ذلك في آثار مشهورة عن السلف والأئمة، وكان السلف والأئمة يذكرون الآثار التي فيها ذكر تكلم الله بالصوت، ولا ينكرها منهم أحد، حتى قال عبد الله بن أحمد: قلت لأبي: إن قوماً يقولون: إن الله لا يتكلم بصوت، فقال: يا بني هؤلاء جهمية، إنما يدورون على التعطيل. ثم ذكر بعض الآثار المروية في ذلك.

وكلام البخاري في «كتاب خلق الأفعال» صريح في أن الله يتكلم بصوت، وفرق بين صوت الله وأصوات العباد، وذكر في ذلك عدة أحاديث عن النبي ﷺ وكذلك ترجم في كتاب «الصحيح» باب في قوله تعالى: / ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ (١) [سبأ: ٢٣]، وذكر ما دل على أن الله يتكلم بصوت وهو القدر.

٦/٥٢٨

وكما أنه المعروف عند أهل السنة والحديث، فهو قول جماهير فرق الأمة، فإن جماهير الطوائف يقولون: إن الله يتكلم بصوت مع نزاعهم في أن كلامه هل هو مخلوق، أو قائم بنفسه؟ قديم أو حادث؟ أو ما زال يتكلم إذا شاء؟ فإن هذا قول المعتزلة، والكرامية، والشيعة وأكثر المرجئة، والسلمية، وغير هؤلاء من الحنفية والمالكية، والشافعية، والحنبلية، والصوفية.

وليس من طوائف المسلمين من أنكر أن الله يتكلم بصوت إلا ابن كلاب ومن اتبعه كما أنه ليس في طوائف المسلمين من قال: إن الكلام معنى واحد قائم بالمتكلم إلا هو ومن اتبعه، وليس في طوائف المسلمين من قال: إن أصوات العباد بالقرآن قديمة أزلية، ولا أنه يسمع من العباد صوتاً قديماً، ولا أن القرآن نسمعه نحن من الله، إلا طائفة قليلة من المنتسبين إلى أهل الحديث من أصحاب الشافعي وأحمد وداود وغيرهم، وليس في المسلمين من يقول: إن الحرف الذي هو مداد المصاحف قديم أزلي، فإثبات الحرف والصوت بمعنى أن المداد وأصوات العباد قديمة بدعة باطلة لم يذهب إليها أحد من الأئمة، وإنكار تكلم الله

(١) البخاري في التفسير معلقاً (الفتح ٥٣٧/٨).

بالصوت ، وجعل كلامه معنى واحداً قائماً بالنفس بدعة باطلة لم يذهب إليها أحد من السلف والأئمة .

والذي اتفق عليه السلف والأئمة : أن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق، / منه بدأ، ٦/٥٢٩ وإليه يعود، وإنما قال السلف : «منه بدأ» ؛ لأن الجهمية - من المعتزلة وغيرهم - كانوا يقولون : إنه خلق الكلام في المحل، فقال السلف : منه بدأ أي : هو المتكلم به فمنه بدأ، لا من بعض المخلوقات، كما قال تعالى : ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [الزمر: ١] وقال تعالى : ﴿وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي﴾ [السجدة: ١٣]، وقال تعالى : ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ﴾ [سبأ: ٦]، وقال تعالى : ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [النحل: ١٠٢] ، ومعنى قولهم : «إليه يعود» أنه يرفع من الصدور والمصاحف، فلا يبقى في الصدور منه آية ولا منه حرف كما جاء في عدة آثار.

٦/٥٣٠

/فصل/

إذا تبين هذا ، فقول القائل : لا يثبت لله صفة بحديث واحد عنه أجوبة :

أحدها: أن يقال : لا يجوز النفي إلا بدليل، كما لا يجوز الإثبات إلا بدليل . فإذا كان هذا القائل ممن لا يتكلم في هذا الباب إلا بأدلة شرعية، ويرد الأقوال المبتدعة . قيل له : قول القائل : إن الله لا يتكلم بصوت ونحو ذلك، كلام لم يقله أحد من سلف الأمة وأئمتها، وليس فيه حديث لا صحيح ولا ضعيف، وأما الإثبات ففيه عدة أحاديث في الصحاح والسنن والمسند، وآثار كثيرة عن السلف والأئمة، فأَي القولين حيثنذ هو الذي جاءت به السنة؟ قول المثبت أو النافي ؟ وإن كان ممن يتكلم بالأدلة العقلية في هذا الباب تكلم معه في ذلك، وبين له أنها تدل على الإثبات لا على النفي، وأن قول النفاة معلوم الفساد بدلائل العقل كما اتفق على ذلك جمهور العقلاء .

الوجه الثاني : أن يقال : هذه الصفة دل عليها القرآن؛ فإن الله أخبر بمناداته لعباده في غير آية ، كقوله تعالى : ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾ [مريم: ٥٢] ، وقوله : ﴿وَيَوْمَ / يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القصص: ٦٢] وقوله : ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ﴾ [الأعراف: ٢٢]، والنداء في لغة العرب هو صوت رفيع، لا يطلق النداء على ما ليس بصوت لا حقيقة ولا مجازاً، وإذا كان النداء نوعاً من الصوت فالدال على النوع دال على الجنس بالضرورة، كما لو دل دليل على أن هنا إنساناً فإنه يعلم أن هنا حيواناً.

٦/٥٣١

وهذا كما أنه إذا أخبر أن له علماً وقدره ، دل على أن له صفة ؛ لأن العلم والقدرة نوع من الصفات ، و إذا كان لفظ القرآن لم يذكر فيه أن العلم صفة ولا القدرة صفة . وكذلك إذا أخبر في القرآن أنه يخلق ويرزق ويحيى ويميت دل على أنه فاعل ، فإن هذه أنواع تحت جنس الفعل ، وإن كان ثبوت هذه الصفة بما قد دل عليه القرآن - في غير موضع - كان ما جاء من الأحاديث موافقاً لدلالة القرآن ، ولم تكن هذه الصفة ثابتة بمجرد هذا الخبر .

الوجه الثالث: إن ما أخبر الله به في كتابه من تكليم موسى وسمع موسى لكلام الله ، يدل على أنه كلمه بصوت ، فإنه لا يسمع إلا الصوت ، وذلك أن الله قال في كتابه عن موسى : ﴿ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ﴾ [طه: ١٣] ، وقال في كتابه : ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا . / وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴾ [النساء: ١٦٣ ، ١٦٤] .

٦/٥٣٢

ففرق بين إيحائه إلى سائر النبيين وبين تكليمه لموسى ، كما فرق أيضاً بين النوعين في قوله : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾ [الشورى : ٥١] ، ففرق بين الإيحاء والتكليم من وراء حجاب ، فلو كان تكليمه لموسى إلهاماً ألهمه موسى من غير أن يسمع صوتاً ، لم يكن فرق بين الإيحاء إلى غيره والتكليم له ، فلما فرق القرآن بين هذا وهذا ، وعلم بإجماع الأمة ما استفاضت به السنن عن النبي ﷺ من تخصيص موسى بتكليم الله إياه ، دل ذلك على أن الذي حصل له ليس من جنس الإلهامات وما يدرك بالقلوب ، إنما هو كلام مسموع بالأذان ، ولا يسمع بها إلا ما هو صوت .

الوجه الرابع : أن مفسري القرآن ، وأهل السنن والآثار ، وأتباعهم من السلف ، كلهم متفقون على أن الله كلم موسى بصوت ، كما في الآثار المعروفة عنهم في الكتب المأثورة عن السلف ، مثل ما ذكره ابن جرير وأسأله في تفسير قوله : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ ﴾ [سبأ: ٢٣] ، وتفسير كلام الله لموسى وغير ذلك ، وكما ذكره عبد الله بن أحمد ، والحلال والطبراني ، وأبو الشيخ ، وغيرهم في « كتب السنة » وكما ذكره الإمام أحمد وغيره في « كتب الزهد ، وقصص الأنبياء » .

/ الوجه الخامس : أن يقال : الأدلة الدالة على أن الله يتكلم - من الشرع والعقل - دلت على أنه يتكلم بالصوت ، فإن الناس لهم في مسمى الكلام أربعة أقوال :

٦/٥٣٣

قيل: إنه اسم للفظ الدال على المعنى، وقيل: للمعنى المدلول عليه باللفظ وقيل: اسم لكل منهما بطريق الاشتراك. وقيل: اسم لهما بطريق العموم، وهذا مذهب السلف والفقهاء والجمهور، فإذا قيل: تكلم فلان: كان المفهوم منه عند الإطلاق اللفظ والمعنى جميعاً، كما قال النبي ﷺ: «إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت بها أنفسها ما لم تتكلم أو تعمل به»^(١)، وقال: «كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم»^(٢)، وقال: «أصدق كلمة قالها شاعر: كلمة لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل»^(٣).

ونظائر هذا كثيرة.

فالكلام إذا أطلق يتناول اللفظ والمعنى جميعاً، وإذا سمي المعنى وحده كلاماً، أو اللفظ وحده كلاماً، فإنما ذاك مع قيد يدل على ذلك، كما قد بسط في غير هذا الموضع، وأن الكلام عند الإطلاق هو اللفظ والمعنى جميعاً، والقرآن والحديث مملوء من آيات الكلام لله تعالى، فكان المفهوم من ذلك هو إثبات اللفظ والمعنى لله.

٦/٥٣٤ / الوجه السادس: أن القرآن كلام الله باتفاق المسلمين، فإذا كان كلامه هو المعنى فقط، والنظم العربي الذي يدل على المعاني ليس كلام الله كان مخلوقاً خلقه الله في غيره، فيكون كلاماً لذلك الغير؛ لأن الكلام إذا خلق في محل كان كلاماً لذلك الغير كما تقدم، فيكون الكلام العربي ليس كلام الله، بل كلام غيره، ومن المعلوم بالاضطرار من دين المسلمين أن الكلام العربي الذي بلغه محمد ﷺ عن الله أعلم أمته أنه كلام الله لا كلام غيره، فإن كان النظم العربي مخلوقاً لم يكن كلام الله فيكون ما تلقته الأمة عن نبينا باطلاً.

وهذا من أعظم حجج السنية على الجهمية من أن القرآن غير مخلوق، فإنهم قالوا: لو خلقه في غيره لكان صفة لذلك الغير، كسائر الصفات المخلوقة إذا خلقها الله في محل كانت صفة لذلك المحل، وهذا بعينه يدل على أن القرآن العربي كلام الله لا كلام غيره، إذ لو كان مخلوقاً في محل لكان الكلام العربي كلاماً لذلك المحل الذي خلق فيه، وقد علم بالاضطرار من دين الإسلام أن الكلام العربي كلام الله لا كلام غيره.

وهذا يبطل قول من قال من المتأخرين: إن الكلام يقال بالاشتراك على اللفظ

(١) البخاري في الطلاق (٥٢٦٩)، وفي الإيمان (٦٦٦٤)، ومسلم في الإيمان (١٢٧/٢٠١، ٢٠٢)، وأبو داود في الطلاق (٢٢٠٩)، والترمذي في الطلاق (١١٨٣)، والنسائي في الطلاق (٣٤٣٣، ٣٤٣٤).

(٢) البخاري في الرقاق (٦٤٨٩) ومسلم في الشعر (٢٢٥٦ / ٢).

(٣) البخاري في التوحيد (٧٥٦٣) ومسلم في الذكر والدعاء (٢٦٩٤ / ٣١).

والمعنى، فإنه يقال لهم : إذا كان كل منهما يسمى كلاماً حقيقة، امتنع أن يكون واحد منهما مخلوقاً، إذ لو كان مخلوقاً لكان كلاماً للمحل الذي خلق فيه .

٦/٥٣٥

/ولهذا لم يكن قدماء الكلابية يقولون : إن لفظ الكلام مشترك بين اللفظ والمعنى؛ لأن ذلك يبطل حجته على المعتزلة ، ويوجب عليهم القول بأن كلام الله مخلوق، لكن كانوا يقولون : إن إطلاق الكلام على اللفظ بطريق المجاز، وعلى المعنى بطريق الحقيقة، فعلم متأخروهم أن هذا فاسد بالضرورة وأن اسم الكلام يتناول اللفظ حقيقة فجعلوه مشتركاً، فلزمهم أن يكون كلام الله مخلوقاً، فهم بين محذورين : إما القول بأن كلام الله مخلوق، وإما القول بأن القرآن العربي ليس كلام الله ، وكلا الأمرين معلوم الفساد ، وليس الكلام في نفس أصوات العباد وحركاتهم ، بل الكلام في نفس القرآن العربي المنزل على محمد ﷺ .

ويظهر ذلك بأن نقدر الكلام في القرآن قبل أن ينزل إليه ويبلغه إلى الخلق . فإن قيل : إنه كله كلام الله تكلم به وبلغه عنه جبريل إلى محمد - كما هو المعلوم من دين المرسلين - كان هذا صريحاً بأنه لا فرق بين الحروف والمعاني وأن هذا من كلام الله، كما أن هذا من كلام الله، وإن قيل : إنه خلق في غيره حروفاً منظمة دلت على معنى قائم بذاته، فقد صرح بأن تلك الحروف المؤلفة ليست كلامه، وأنه لم يتكلم بها بحال . وإذا قيل : إن تلك تسمى كلاماً حقيقة وقد خلقت في غيره، لزم أن تكون كلاماً لذلك الغير فلا يكون كلام الله، وهو خلاف المعلوم من دين الإسلام، وإن قيل : لا يسمى كلاماً حقيقة كان خلاف المعلوم من اللغة والشريعة ضرورة .

٦/٥٣٦

ونحن لا نمنع أن المعنى وحده قد يسمى كلاماً، كما قد يسمى اللفظ وحده / كلاماً، لكن الكلام في القرآن الذي هو لفظ، ومعنى هل جميعه كلام الله ؟ أم لفظه كلام الله، دون معناه؟ أم معناه كلام الله دون لفظه؟ ومن المعلوم بالاضطرار من دين الإسلام أن الجميع كلام الله، وقد قال تعالى : ﴿وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا نُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ . قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ ۖ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِي ۖ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ [النحل : ١٠١] . ١٠٣] ، كان بعض المشركين يقولون : إن محمداً إنما يتعلم القرآن من عبد لبني الحضرمي، فقال الله تعالى : لسان الذي يضيفون إليه القرآن لسان أعجمي وهذا لسان عربي مبين .

وهذا يبين أن محمداً بلغ القرآن لفظه ومعناه، لم ينزل عليه معان مجردة، إذ لو كان كذلك لأمكن أن يقال : تلقى من هذا الأعجمي معان صاغها بلسانه، فلما ذكر قوله :

﴿لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِي وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣] بعد قوله: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [النحل: ١٠٢] دل ذلك على أن روح القدس نزل بهذا اللسان العربي المبين.

الوجه السابع: أن كلام الله وسائر الكلام، يسمع من المتكلم، كما سمع موسى كلام الله من الله، وسمع الصحابة كلام النبي ﷺ منه، وتارة يسمع من المبلغ عنه، كما سمع المسلمون القرآن من النبي ﷺ، والمبلغين عنه، / ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، وكما يسمع كلام النبي ﷺ من الصحابة، ثم من المعلوم أن المحدث إذا حدث بقوله: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى»^(١) كان الكلام كلام رسول الله ﷺ لفظه ومعناه، تكلم به بصوته والمحدث بلغه بحركاته وأصواته.

ثم من المعلوم أن المبلغ عن النبي ﷺ وأمثاله من الناطقين تكلم به بحروفه ومعانيه، مع إمكان الرواية عنه بالمعنى، وإمكان قيام ألفاظ مكان ألفاظ، كما حكى الله في القرآن أقوال أمم تكلمت بغير الكلام العربي، ولو قدر أن المبلغ عنه لم يتكلم إلا بمعنى الكلام وعبر عنه لكان كالأخرس الذي تقوم بذاته المعاني من غير تعبير عنها - حتى يعبر عنها غيره بعبارة لذلك الغير، ومن المعلوم أن الكلام صفة كمال تنافى الخرس، فإذا كان من قال: إن الله لا يقوم به كلام، فقد شبهه بالجامدات ووصفه بالنقص وسلبه الكمال، فمن قال أيضاً: إنه لا يعبر عما في نفسه من المعاني إلا بعبارة تقوم بغيره، فقد شبهه بالأخرس الذي لا يعبر عن نفسه إلا بعبارة تقوم بغيره، وهذا قول يسلبه صفة الكمال ويجعل غيره من مخلوقاته أكمل منه.

وقد قرر في غير هذا الموضع أن كل كمال يثبت لمخلوق فالخالق أولى به، وكل نقص تنزه عنه مخلوق، فالخالق أولى بالتنزه عنه، وكان هذا من الأدلة الدالة على إثبات صفات الكمال له كالحياة والعلم والقدرة، فإن هذه صفات كمال / تثبت لخالقه فهو أولى وأحق باتصافه بصفات الكمال، ولو لم يتصف بصفات الكمال لكانت مخلوقاته أكمل منه، وهذا بعينه قد احتجوا به في مسألة الكلام، وهو مطرد في تكلمه بعبارة القرآن ومعناه جميعاً.

وقد استدلوا - أيضاً - بأنه لو لم يتصف بصفات الكمال لاتصف بتقائضها، وهي صفات نقص، والله منزه عن ذلك، فلو لم يوصف بالحياة لوصف بالموت، ولو لم يوصف بالعلم لوصف بالجهل، ولو لم يوصف بالكلام لوصف بالأخرس، ولو لم يوصف بالبصر والسمع لوصف بالعمى والصمم.

(١) البخاري في بدء الوحي (١)، ومسلم في الإمامة (١٩٠٧/١٥٥).

وللملاحظة هنا سؤال مشهور وهو : أن هذه المتقابلات ليست متقابلة تقبل السلب والإيجاب ، حتى يلزم من نفى أحدهما ثبوت الآخر ، بل هي متقابلة تقابل العدم، والملكية، وهو سلب الشيء عما شأنه أن يكون قابلاً له ، كعدم العمى عن الحيوان القابل له، فأما الجماد فإنه لا يوصف عندهم بالعمى ولا البصر لعدم قبوله لواحد من هذين ، وقد أعيا هذا السؤال كثيراً من المتأخرين - حتى أبى الحسن الآمدي وأمثاله من أهل الكلام - وظنوا أنه لا جواب عنه، وقد بسط الكلام في أجوبته في غير هذا الموضع .

وذكر من جملة الأجوبة عن هذا أن يقال: هذا أبلغ في النقص، فإن ما كان قابلاً للاتصاف بالبصر والعمى، والعلم والجهل ، والكلام والخرس ، فهو أكمل مما لا يقبل واحداً منهما؛ إذ الحيوان أكمل من الجماد، فإذا كان الاتصاف بصفات النقص عيباً مع إمكان الاتصاف بصفات الكمال، فعدم / إمكان الاتصاف بصفات الكمال وعدم قبول ذلك أعظم آفة وعيباً ونقصاً فسبحان الله وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

الوجه الثامن: أن يقال: كلام الله إما أن يكون مخلوقاً ، منفصلاً عنه، ولم يقم بذاته كلام - كما يقوله الجهمية : من المعتزلة وغيرهم - وإما أن يكون كلامه قائماً به، والأول باطل باتفاق سلف الأمة وأئمتها ، وسائر أهل السنة والجماعة، وأدلة بطلانه من الشرع والعقل كثيرة ، كما قد بسط في موضعه .

وإن كان كلامه قائماً به، فلا يخلو إما أن يقال: لم يقيم به إلا المعنى ، كما يقوله ابن كلاب وأتباعه، وإما أن يقوم به المعنى والحروف، والأول باطل .

أما أولاً : فلأن المعنى الواحد يمتنع أن يكون هو الأمر، والنهي، والخبر، وأن يكون هو مدلول التوراة، والإنجيل ، والقرآن .

وأما ثانياً: فلأن المعنى المجرد لا يسمع، وقد ثبت بالنص والإجماع أن كلام الله مسموع منه كما سمعه موسى بن عمران ؛ ولهذا كان محققوا من يقول بأن الكلام هو مجرد المعنى يقول : إنه لا يسمع ، ولكن طائفة منهم زعمت أنه يسمع بناء على قولهم: إن السمع يتعلق بكل موجود، والرؤية بكل موجود، والشم والذوق واللمس بكل موجود، وجمهور العقلاء يقولون : إن فساد هذا معلوم بالضرورة من العقل، وهذا من أعظم ما أنكره الجمهور على أبي الحسن الأشعري ومن وافقه من أصحاب أحمد وغيرهم .

/ وأما ثالثاً: فلو لم يكن الكلام إلا معنى لم يكن فرق بين تكليم الله لموسى وإيحائه إلى غيره، لا بين التكليم من وراء حجاب، والتكليم إichاء ، فإن إيصال معرفة المعنى المجرد إلى القلوب يشترك فيه جميع الأنبياء . ولهذا قال من بنى على هذا الأصل الفاسد : إن الواحد من أهل الرياضة قد يسمع كلام الله كما سمعه موسى بن عمران كما ذكر ذلك

في «الإحياء» ونحوه، وصار الواحد من هؤلاء يظن أن ما يحصل له من الإلهامات هي مثل تكليم الله لموسى بن عمران.

ودخلت الفلاسفة من هذا الباب، فزعموا أن تكليم الله لموسى إنما هو فيض فاض على نفسه من العقل الفعال، وأن كلام الله ليس إلا ما يحصل في النفوس من المخاطبات، كما أن الملائكة ما يحصل في القلوب من الصور الخيالية، ومثل هذا قد يحصل في اليقظة والنام، فجعلوا تكليم الله لموسى بن عمران من جنس من يرى ربه في المنام وهو يكلمه، ونحو ذلك، وهو لازم لقول من جعل كلام الله معنى مجرداً، وإذا كان اللزوم معلوم الفساد بالاضطرار من دين الإسلام علم فساد اللازم.

وأما رابعاً: فلو لم يكن الكلام إلا مجرد المعاني لكان المخلوق أكمل من الخالق، فإنما كما نعلم أن الحي أكمل من الميت، وأن العالم أكمل من الجاهل والقادر أكمل من العاجز، والناطق أكمل من الأخرس، فنحن نعلم أن الناطق بالمعاني والحروف أكمل ممن لا يكون ناطقاً إلا بالمعاني دون الحروف، وإذا كان / الرب يمتنع أن يوصف بصفات النقص، ويجب اتصافه بصفات الكمال، ويمتنع أن يكون للمخلوق من صفات الكمال ما لا يكون للخالق، امتنع أن يكون موصوفاً بالكلام الناقص وأن يكون المخلوق أكمل منه في اتصافه بالكلام التام؛ ولهذا كان موسى بن عمران مفضلاً على غيره بتكليم الله إياه، كلمه كلاماً سمعه موسى من الله، فكان تكليمه له بصوته أفضل ممن أوحى إلى قلبه معاني مجردة لم يسمعها بأذنه.

وأما خامساً: فلو لم يكن الكلام إلا معنى مجرداً لكان نصف القرآن كلام الله ونصفه ليس كلام الله، فالمعنى كلام الله والألفاظ ليست كلام الله، وهذا خلاف المعلوم من دين المسلمين؛ ولهذا يفرقون بين القرآن الذي هو كلام الله وبين ما أوحاه إلى نبيه من المعاني المجردة، ويعلمون أن جبريل نزل عليه بالقرآن كله، ليس لجبريل ولا لمحمد منه إلا التبليغ والأداء، فهذا رسوله من الملائكة، وهذا رسوله من البشر.

ولهذا أضافه الله إلى هذا تارة، وإلى هذا تارة بلفظ الرسول، كما قال: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ . وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُوْمِنُونَ﴾ الآية [الحاقة: ٤٠، ٤١]، فهذا محمد، وقال: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ . ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ . مُطَاعٌ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير: ١٩-٢١]، فهذا جبريل.

وقد ظن بعض الغالطين أن إضافته إلى الرسول تقتضي أنه أنشأ حروفه وهذا خطأ؛ لأنه لو كان جبريل أو محمد هو الذي أنشأ لفظه ونظمه امتنع أن يكون الآخر الذي أنشأ ذلك، فلما أضافه إلى هذا تارة، وإلى هذا تارة، علم أنه أضافه إليه لأنه بلغه وأداه لا لأنه أنشأه وابتداه، لا لفظه ولا معناه؛ ولهذا قال: ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ ولم يقل: لقول

ملك ولا نبي. فذكر ذلك بلفظ الرسول ليين أنه يبلغ عن غيره، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧]، وفي السنن أن النبي ﷺ كان يعرض نفسه على الناس في الموسم ويقول: «ألا رجل يحملني إلى قومه لأبلغ كلام ربي، فإن قريشاً قد منعوني أن أبلغ كلام ربي»^(١).

وأيضاً، فإن قوله: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ عائد إلى القرآن فتناوله للفظ كتناوله للمعنى، والقرآن اسم لهما جميعاً، ولهذا إذا فسره المفسر، وترجمه المترجم، لم يقل لتفسيره وترجمته إنه قرآن، بل اتفق المسلمون على جواز مس المحدث لكتب التفسير، واتفقوا على أنه لا تجوز الصلاة بتفسيره وكذلك ترجمته بغير العربية عند عامة أهل العلم، والقول المروي عن أبي حنيفة قيل: إنه رجع عنه، وقيل: إنه مشروط بتسمية الترجمة قرآناً. وبكل حال فتجوز إقامة الترجمة مقامه في بعض الأحكام لا يقتضي تناول اسمه لها، كما أن القيمة إذا أخرجت من الزكاة عن الإبل والبقر والغنم لم تسم إبلاً، ولا بقرًا، ولا غنماً، بل تسمى باسمها كائنة ما كانت.

وكذلك لفظ التكبير في الصلاة، إذا عدل عنه إلى لفظ التسبيح ونحوه، وقيل: إن الصلاة تنعقد بذلك - كما يقوله أبو حنيفة - لم يقل: إن ذلك لفظ تكبير،/ فذلك إذ قدر أنا ترجمنا القرآن ترجمة جائزة لم يقل: إن الترجمة قرآن، ولم نسما قرآناً، فلو كان القرآن إنما كان كلام الله لأجل المعنى فقط ولفظه ونظمه ليس كلام الله، بل سمي بذلك لدلالته على كلام الله، كان ما شارك هذا اللفظ والنظم من الدلالة مشاركاً له في الاسم والحكم، فكان يجب تسميته، قرآناً وإثبات أحكام القرآن له، والكلام على هذا مبسوط في موضع آخر.

الوجه التاسع: أن هذا القرآن الذي يقرأه المسلمون هو كلام الله الذي أنزله على نبيه، كما ثبت ذلك بالنص وإجماع المسلمين، وقد كفر الله من قال: إنه قول البشر، ووعد أنه سيصليه سقر، في قوله: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ. فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ. ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ. ثُمَّ نَظَرَ. ثُمَّ عَبَسَ وَسَمَرَ. ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ. فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا سَحَرٌ يُؤْتَرُ. إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ [المدثر: ١١-٢٥]، ولاريب أنه لم يرد بقوله: ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ كما أراده الله بقوله: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [الحاقة: ٤٠]، فإنه لو أراد أن البشر بلغوه عن غيرهم كما يتعلمه الناس بعضهم من بعض لم يكن هذا باطلاً، وإنما أراد أن

(١) أبو داود في السنة (٤٧٣٤)، والترمذي في فضائل القرآن (٢٩٢٥)، والنسائي في الكبرى في النعوت (٢/٧٧٢٧)، وابن ماجه في المقدمة (٢٠١)، والدارمي في فضائل القرآن ٢/ ٤٤٠، وأحمد ٣/ ٣٩٠، كلهم عن جابر بن عبد الله.

البشر أحدثوه وأنشؤوه عنه .

فمن جعل لفظه ونظمه من إحداث محمد ، فقد جعل نصفه قول البشر ، ومن جعله من إحداث جبريل ، فقد جعل نصفه قول الملائكة ، ومن جعله / مخلوقاً في الهواء أو غيره جعله كلاماً لذلك الهواء . وكفر من قال : إنه قول الملك ، أو قول الهواء ، أو الشجر ، بل كفر من قال : إنه قول البشر ، فدل ذلك على أنه ليس شيء من القرآن - لا لفظه ، ولا معناه - من قول أحد من المخلوقين ولا من كلامه ، بل هو كلام الله تعالى ، وأيضاً - فالإشارة في قوله : ﴿ إِنَّ هَذَا الْقَوْلُ الْبَشَرُ ﴾ لا تعود إلى المعنى دون اللفظ ، بل إليهما .

الوجه العاشر: وهو أن الله أخبر أن القرآن منزل من الله، كما قال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا هُم بِالنَّبِيِّ هَذَا خَلِقُوا فِي رُوحِ رَبِّهِمْ لَيُؤْتِيَهُمْ لِسَانَ مِثْلَ نَجْمٍ لَازِقٍ ذَلِكُمْ فَسَادٌ لِّلْأَعْيُنِ وَلَٰكِنَّ الْغَايَةَ إِنَّمَا يَلْقَا فِي هَٰذَا السَّبْعِ أَرْبَعُونَ نَبْرًا﴾ [النجم: ١٠-١٤]، وقال: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [الأنعام: ١١٤]، وقال: ﴿نَزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [الزمر: ١]، الضمير يتناول اللفظ والمعنى جميعاً لا سيما ما في قوله: ﴿نَزِيلُ الْكِتَابِ﴾ فإن الكتاب عند من يقول: إن كلام الله هو المعنى دون الحروف اسم للنظم العربي، والكلام عنده اسم للمعنى، والقرآن مشترك بينهما، فلفظ الكتاب يتناول اللفظ العربي باتفاق الناس.

فإذا أخبر أن ﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ ﴾ علم أن النظم العربي منزل من الله وذلك يدل على ما قال السلف: إنه منه بدأ ، أي هو الذي تكلم به ، وهذا جواب مختصر عن سؤال السائل بحسب ما احتملته هذه الورقة؛ إذ الكلام على ذلك مبسوط في مواضع آخر، والله أعلم. والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

/ سئل شيخ الإسلام أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام العالم الرباني والعايد النوراني ابن تيمية الحراني - أيده الله تعالى :

ما تقول في العرش هل هو كرى أم لا؟ وإذا كان كرياً والله من ورائه محيط به بائن عنه، فما فائدة أن العبد يتوجه إلى الله تعالى حين دعائه وعبادته ، فيقصد العلو دون غيره، ولا فرق حينئذ وقت الدعاء بين قصد جهة العلو ، وغيرها من الجهات التي تحيط بالداعي؟ ومع هذا نجد في قلوبنا قصداً يطلب العلو لا يلتفت يمينه ولا يسرة، فأخبرنا عن هذه الضرورة التي نجدها في قلوبنا، وقد فطرنا عليها.

وابسط لنا الجواب في ذلك بسطاً شافياً، يزيل الشبهة ويحقق الحق - إن شاء الله - أدام الله النفع بكم وبعلومكم آمين.

فأجاب - رحمه الله تعالى :

الحمد لله رب العالمين ، الجواب عن هذا السؤال بثلاث مقامات :

/أحدها: ٦/٥٤٦

إنه لقائل أن يقول: لم يثبت بدليل يعتمد عليه أن العرش فلك من الأفلاك المستديرة الكرية الشكل، لا بدليل شرعي، ولا بدليل عقلي.

وإنما ذكر هذا طائفة من المتأخرين ، الذين نظروا في علم الهيئة وغيرها من أجزاء الفلسفة، فرأوا أن الأفلاك تسعة، وأن التاسع - وهو الأطلس - محيط بها، مستدير كاستدارتها، وهو الذي يحركها الحركة المشرقية ، وإن كان لكل فلك حركة تخصه غير هذه الحركة العامة، ثم سمعوا في أخبار الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم - ذكر عرش الله، وذكر كرسيه، وذكر السموات السبع، فقالوا بطريق الظن: إن العرش هو :الفلك التاسع، لا اعتقادهم أنه ليس وراء التاسع شيء ، إما مطلقاً وإما أنه ليس وراءه مخلوق.

ثم إن منهم من رأى أن التاسع هو الذي يحرك الأفلاك كلها، فجعلوه مبدأ الحوادث، وزعموا أن الله يحدث فيه ما يقدره في الأرض، أو يحدثه في النفس التي زعموا أنها متعلقة به ، أو في العقل الذي زعموا أنه الذي صدر عنه هذا الفلك، وربما سماه بعضهم

الروح، وربما جعل بعضهم النفس هي :الروح، وربما جعل بعضهم النفس هي : اللوح المحفوظ، كما جعل العقل هو :القلم .

٦/٥٤٧ وتارة يجعلون الروح هو العقل الفعال العاشر الذي لفلك القمر، / والنفس المتعلقة به، وربما جعلوا ذلك بالنسبة إلى الحق سبحانه كالدماغ بالنسبة إلى الإنسان، يقدر فيه ما يفعل قبل أن يكون ، إلى غير ذلك من المقالات التي قد شرحناها، وبيننا فسادها في غير هذا الموضع .

ومنهم من يدعي أنه علم ذلك بطريق الكشف والمشاهدة، ويكون كاذباً فيما يدعيه وإنما أخذ ذلك عن هؤلاء المتفلسفة تقليداً لهم، أو موافقة لهم على طريقتهم الفاسدة، كما فعل أصحاب رسائل إخوان الصفا وأمثالهم .

وقد يتمثل في نفسه ما تقلده عن غيره فيظنه كشفاً، كما يتخيل النصراني التثليث الذي يعتقد، وقد يرى ذلك في منامه فيظنه كشفاً، وإنما هو تخيل لما اعتقده، وكثير من أرباب الاعتقادات الفاسدة إذا ارتاضوا صقلت الرياضه نفسوهم، فتمثل لهم اعتقاداتهم، فيظنونها كشفاً، وقد بسطنا الكلام على هذا في غير هذا الموضع .

والمقصود هنا أن ما ذكروه من أن العرش هو الفلك التاسع قد يقال: إنه ليس لهم عليه دليل لا عقلي ، ولا شرعي .

أما العقلي : فإن أئمة الفلاسفة مصرحون بأنه لم يقم عندهم دليل على أنه ليس وراء الفلك التاسع شيء آخر، بل ولا قام عندهم دليل على أن الأفلاك هي تسعة فقط ، بل يجوز أن تكون أكثر من ذلك، ولكن دلتهم الحركات المختلفة، والكسوفات ونحو ذلك على ما ذكروه، وما لم يكن لهم دليل على ثبوته فهم لا يعلمون لا ثبوته ولا انتفاءه .

٦/٥٤٨ / مثال ذلك :أنهم علموا أن هذا الكوكب تحت هذا، بأن السفلي يكشف العلوي من غير عكس، فاستدلوا بذلك على أنه في فلك فوقه، كما استدلوا بالحركات المختلفة، على أن الأفلاك مختلفة، حتى جعلوا في الفلك الواحد عدة أفلاك، كفلك التدوير وغيره .

فأما ما كان موجوداً فوق هذا ولم يكن لهم ما يستدلون به على ثبوته : فهم لا يعلمون نفيه ولا إثباته بطريقهم .

وكذلك قول القائل : إن حركة التاسع مبدأ الحوادث خطأ، وضلال على أصولهم ، فإنهم يقولون: إن الثامن له حركة تخصه بما فيه من الثوابت، ولتلك الحركة قطبان غير قطبي التاسع ، وكذلك السابع ، والسادس .

وإذا كان لكل فلك حركة تخصه - والحركات المختلفة هي سبب الأشكال الحادثة المختلفة الفلكية، وتلك الأشكال سبب الحوادث السفلية - كانت حركة التاسع جزء السبب، كحركة غيره.

فالأشكال الحادثة في الفلك - لمقارنة الكوكب الكوكب، في درجة واحدة. ومقابلته له إذا كان بينهما نصف الفلك، وهو مائة وثمانون درجة. و تثليثه له إذا كان بينهما ثلث الفلك وهو مائة وعشرون درجة، وتربيعه له إذا كان بينهما ربعة تسعون درجة، وتسديسه له إذا كان بينهما سدس الفلك ستون درجة، وأسثال ذلك من الأشكال - إنما حدثت بحركات مختلفة، وكل حركة ليست عين الأخرى، إذ حركة الثامن التي تخصه ليست عين / حركة التاسع، وإن كان تابعاً له في الحركة الكلية، كالإنسان المتحرك في السفينة إلى خلاف حركتها.

٦/٥٤٩

وكذلك حركة السابع التي تخصه، ليست عن التاسع ولا عن الثامن، وكذلك سائر الأفلاك. فإن حركة كل واحد التي تخصه ليست عما فوقه من الأفلاك، فكيف يجوز أن يجعل مبدأ الحوادث كلها مجرد حركة التاسع!! كما زعمه من ظن أن العرش كثيف والفلك التاسع عندهم بسيط متشابه الأجزاء، لا اختلاف فيه أصلاً، فكيف يكون سبباً لأمر مختلف، لا باعتبار القوابل وأسباب أخرى؟

ولكن هم قوم ضالون، يجعلونه مع هذا ثلاثمائة وستين درجة، ويجعلون لكل درجة من الأثر ما يخالف الأخرى، لا باختلاف القوابل، كمن يجيء إلى ماء واحد فيجعل لبعض جزئه من الأثر ما يخالف الآخر، لا بحسب القوابل؛ بل يجعل أحد أجزائه مسخناً، والآخر مبرداً، والآخر مسعداً، والآخر مشقياً، وهذا مما يعلمون هم وكل عاقل أنه باطل وضلال.

وإذا كان هؤلاء ليس عندهم ما ينفي وجود شيء آخر فوق الأفلاك التسعة، كان الجزم بأن ما أخبرت به الرسل هو أن العرش هو الفلك التاسع رجماً بالغيب، وقولاً بلا علم.

هذا كله بتقدير ثبوت الأفلاك التسعة على المشهور عند أهل الهيئة، إذ في ذلك من النزاع والاضطراب، وفي أدلة ذلك ما ليس هذا موضعه، وإنما نتكلم على / هذا التقدير، وأيضاً: فالأفلاك في أشكالها، وإحاطة بعضها ببعض من جنس واحد؛ فنسبة السابع إلى السادس، كنسبة السادس إلى الخامس، وإذا كان هناك فلك تاسع فنسبته إلى الثامن كنسبة الثامن إلى السابع.

٦/٥٥٠

وأما العرش فالأخبار تدل على مباينته لغيره من المخلوقات، وأنه ليس نسبته إلى بعضها كنسبة بعضها إلى بعض، قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [الآية: غافر: ٧]، وقال سبحانه: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٧]، فآخبر أن للعرش حملة اليوم ويوم القيامة، وأن حملته ومن حوله يسبحون ويستغفرون للمؤمنين.

ومعلوم أن قيام فلك من الأفلاك - بقدره الله تعالى - كقيام سائر الأفلاك، لا فرق في ذلك بين كرة وكرة، وإن قدر أن لبعضها ملائكة في نفس الأمر تحملها، فحكمه حكم نظيره، قال تعالى: ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ﴾ [الزمر: ٧٥].

فذكر هنا أن الملائكة تحف من حول العرش، وذكر في موضع آخر أن له حملة، وجمع في موضع ثالث بين حملته ومن حوله، فقال: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ﴾.

وأيضاً، فقد أخبر أن عرشه كان على الماء قبل أن يخلق السموات والأرض، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ [هود: ٧].

٦/٥٥١ / وقد ثبت في صحيح البخاري وغيره، عن عمران بن حصين عن النبي ﷺ أنه قال: «كان الله ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء، وخلق السموات والأرض»، وفي رواية له: «كان الله ولم يكن شيء قبله، وكان عرشه على الماء، ثم خلق السموات والأرض، وكتب في الذكر كل شيء»، وفي رواية لغيره صحيحة: «كان الله ولم يكن شيء معه، وكان عرشه على الماء، ثم كتب في الذكر كل شيء»^(١) وثبت في صحيح مسلم، عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء»^(٢) وهذا التقدير بعد وجود العرش وقبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة.

وهو - سبحانه وتعالى - متمدح بأنه ذو العرش، كقوله سبحانه: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَبِثُوا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٤٢]، وقوله تعالى: ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ . يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٥، ١٦]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْودُودُ . ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ . فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٤ - ١٦]، وقد قرئ «المجيد» بالرفع صفة لله، وقرئ بالخفض صفة للعرش. وقال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ

(١) البخاري في بدء الخلق (٣١٩١) وأحمد ٤ / ٤٣١.

(٢) مسلم في القدر (٢٦٥٣ / ١٦) والترمذي في القدر (٢١٥٦).

السَّمَوَاتِ السَّبْعَ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ . سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿ [المؤمنون : ٨٦ ، ٨٧] ،
فوصف العرش بأنه مجيد وأنه عظيم ، وقال/ تعالى : ﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴾ [المؤمنون : ١١٦] ، فوصفه بأنه كريم أيضاً .

وكذلك في الصحيحين عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن النبي ﷺ كان يقول
عند الكرب : « لا إله إلا الله العظيم الحليم ، لا إله إلا الله رب العرش العظيم ، لا إله إلا
الله رب السموات ورب الأرض رب العرش الكريم »^(١) ، فوصفه في الحديث بأنه عظيم ،
وكريم أيضاً .

فقول القائل المنازع : إن نسبة الفلك الأعلى إلى ما دونه كنسبة الآخر إلى ما دونه ، لو
كان العرش من جنس الأفلاك ، لكانت نسبته إلى ما دونه كنسبة الآخر إلى ما دونه ، وهذا
لا يوجب خروجه عن الجنس وتخصيصه بالذكر ، كما لم يوجب ذلك تخصيص سماء دون
سماء ، وإن كانت العليا بالنسبة إلى السفلى كالفلك على قول هؤلاء ، وإنما امتاز عما دونه
بكونه أكبر ، كما تمتاز السماء العليا عن الدنيا ، بل نسبة السماء إلى الهواء ، ونسبة الهواء إلى
الماء والأرض . كنسبة فلك إلى فلك ، ومع هذا فلم يخص واحداً من هذه الأجناس عما
يليه بالذكر ، ولا بوصفه بالكرم والمجد والعظمة .

وقد علم أنه ليس سبباً لذواتها ولا لحركاتها ، بل لها حركات تخصها ، فلا يجوز أن
يقال : حركته هي سبب الحوادث ، بل إن كانت حركة الأفلاك سبباً للحوادث ، فحركات
غيره التي تخصه أكثر ، ولا يلزم من كونه محيطاً بها أن يكون أعظم من مجموعها ، إلا إذا
كان له من الغلظ ما يقاوم ذلك ، وإلا فمن المعلوم أن / الغليظ إذا كان متقارباً ، فمجموع
الداخل أعظم من المحيط ، بل قد يكون بقدره أضعافاً ، بل الحركات المختلفة التي ليست عن
حركته أكثر ، لكن حركته تشملها كلها .

وقد ثبت في صحيح مسلم عن جويرية بنت الحارث ، أن النبي ﷺ دخل عليها ،
وكانت تسبح بالخصى من صلاة الصبح إلى وقت الضحى ، فقال : « لقد قلت بعدك أربع
كلمات لو وزنت بما قلتيه لوزنتهن : سبحان الله عدد خلقه ، سبحان الله زنة عرشه ،
سبحان الله رضي نفسه ، سبحان الله مداد كلماته »^(٢) ، فهذا يبين أن زنة العرش أثقل
الأوزان ، وهم يقولون : إن الفلك التاسع لا خفيف ولا ثقل ، بل يدل على أنه وحده

(١) البخاري في الدعوات (٦٣٤٦) ، وفي التوحيد (٧٤٣١) ، ومسلم في الذكر والدعاء (٨٣/٢٧٣٠) .

(٢) ومسلم في الذكر والدعاء (٧٩/٢٧٢٦) .

أثقل ما يمثل به ، كما أن عدد المخلوقات أكثر ما يمثل به .

وفي الصحيحين عن أبي سعيد قال : جاء رجل من اليهود إلى النبي ﷺ قد لطم وجهه ، فقال : يا محمد ، رجل من أصحابك لطم وجهي ، فقال النبي ﷺ : « ادعوه » فدعوه ، فقال : « لم لطمت وجهه ؟ » فقال : يا رسول الله ، إني مررت بالسوق وهو يقول : والذي اصطفى موسى على البشر ! فقلت : يا خبيث ! وعلى محمد ؟ فأخذتني غصبة فلطمته ، فقال النبي ﷺ : « لا تخيروا بين الأنبياء ، فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق فإذا أنا بموسى أخذًا بقائمة من قوائم العرش ، فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعته »^(١) فهذا فيه بيان أن للعرش قوائم ، وجاء ذكر القائمة بلفظ الساق ، والأقوال متشابهة في هذا الباب .

٦/٥٥٤ / وقد أخرجنا في الصحيحين عن جابر قال : سمعت النبي ﷺ يقول : « اهتز عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ »^(٢) قال : فقال رجل لجابر : إن البراء يقول : اهتز السرير ، قال : إنه كان بين هذين الحين الأوس والخزرج ضغائن ، سمعت نبي الله ﷺ يقول : « اهتز عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ » ورواه مسلم في صحيحه من حديث أنس أن النبي ﷺ قال وجنازة سعد موضوعة : « اهتز لها عرش الرحمن »^(٣) .

وعندهم أن حركة الفلك التاسع دائمة متشابهة ، ومن تأول ذلك على أن المراد به استبشار حملة العرش وفرحهم ، فلا بد له من دليل على ما قال ، كما ذكره أبو الحسن الطبري وغيره ، مع أن سياق الحديث ولفظه ينفي هذا الاحتمال .

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « من آمن بالله ورسوله وأقام الصلاة ، وآتى الزكاة وصام رمضان ، كان حقًا على الله أن يدخله الجنة ، هاجر في سبيل الله ، أو جلس في أرضه التي ولد فيها » . قالوا : يا رسول الله ، أفلا نبشر الناس بذلك ؟ قال : « إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيله ، كل درجتين بينهما كما بين السماء والأرض ، فإذا سألت الله فاسأله الفردوس ، فإنه أوسط الجنة ، وأعلى الجنة ، وفوقه عرش الرحمن ، ومنه تفجر أنهار الجنة »^(٤) .

٦/٥٥٥ وفي صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري : أن رسول الله ﷺ / قال : « يا أبا سعيد ، من رضي بالله ربا ، وبالإسلام دينًا ، وبمحمد نبيًا ، وجبت له الجنة » فعجب لها أبو سعيد

(١) البخاري في الأنبياء (٣٣٩٨) ، ومسلم في الفضائل (١٦٢/٢٣٧٤) .

(٢) البخاري في مناقب الأنصار (٣٨٠٣) ، ومسلم في فضائل الصحابة (١٢٣/٢٤٦٦) ، (١٢٤) .

(٣) مسلم في فضائل الصحابة (١٢٥/٢٤٦٧) . (٤) البخاري في التوحيد (٧٤٢٣) .

فقال: أعدّها علي يا رسول الله ، ففعل ، قال: « وأخرى يرفع الله بها العبد مائة درجة ، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض » قال: وما هي يا رسول الله ؟ قال: « الجهاد في سبيل الله »^(١).

وفي صحيح البخاري : أن أم الربيع بنت البراء - وهي أم حارثة بن سُرّاقة - أتت النبي ﷺ فقالت: يا نبي الله ، ألا تحدثني عن حارثة - وكان قتل يوم بدر أصابه سَهْمٌ غَرَبَ - فإن كان في الجنة صبرت ، وإن كان في غير ذلك اجتهدت عليه في البكاء . قال: « يا أم حارثة ، إنها جنان في الجنة ، وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى »^(٢).

فهذا قد بين في الحديث الأول : أن العرش فوق الفردوس الذي هو أوسط الجنة وأعلىها ، وأن في الجنة مائة درجة ، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض ، والفردوس أعلىها . والحديث الثاني : يوافقه في وصف الدرج المائة . والحديث الثالث : يوافقه في أن الفردوس أعلىها .

وإذا كان العرش فوق الفردوس ، فلنائل أن يقول : إذا كان كذلك كان في هذا من العلو والارتفاع ما لا يعلم بالهيئة ، إذ لا يعلم بالحساب أن بين التاسع والأول كما بين السماء والأرض مائة مرة ، وعندهم أن التاسع ملاصق للثامن ، فهذا قد بين أن العرش فوق الفردوس ، الذي هو أوسط الجنة وأعلىها .

وفي حديث أبي ذر المشهور قال: قلت: يا رسول الله ، أيما أنزل عليك / أعظم؟ قال: « آية الكرسي » ثم قال: « يا أبا ذر ، ما السموات السبع مع الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة ، وفضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على الحلقة » ، والحديث له طرق ، وقد رواه أبو حاتم بن حبان في صحيحه ، وأحمد في المسند وغيرهما^(٣).

وقد استدل من استدل على أن العرش مقبب بالحديث الذي في سنن أبي داود وغيره عن جبير بن مطعم قال: أتى رسول الله ﷺ أعرابي فقال: يا رسول الله ، جهدت الأنفس ، وجاع العيال ، وهلك المال ، فادع الله لنا ، فإننا نستشفع بك على الله ، ونستشفع بالله عليك ، فسبح رسول الله ﷺ حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه ، وقال: « ويحك ! أتدري ما تقول؟ إن الله لا يستشفع به على أحد من خلقه ، شأن الله أعظم من ذلك ، إن الله على عرشه ، وإن عرشه على سمواته وأرضه هكذا - وقال بأصابعه مثل القبة » - وفي

(١) مسلم في الإمامة (١١٦/١٨٨٤) . (٢) البخاري في الجهاد (٢٨٠٩) .

وقوله: « سَهْمٌ غَرَبَ »: أي لا يعرف راميهِ . انظر : النهاية ٣/ ٣٥٠ .

(٣) ابن حبان في البر والإحسان (٣٦٢) « إحصان » وتهذيب تاريخ دمشق ٦ / ٣٥٦ .

لفظ : «وإن عرشه فوق سمواته ، وسمواته فوق أرضه هكذا وقال بأصابعه مثل القبة»^(١) .

وهذا الحديث - وإن دل على التقييب ، وكذلك قوله عن الفردوس أنها أوسط الجنة وأعلىها ، مع قوله : إن سقفها عرش الرحمن ، وأن فوقها عرش الرحمن ، والأوسط لا يكون الأعلى إلا في المستدير ، فهذا - لا يدل على أنه فلك من الأفلاك ، بل إذا قدر أنه فوق الأفلاك كلها أمكن هذا فيه سواء قال القائل : إنه محيط بالأفلاك ، أو قال : إنه فوقها وليس محيطاً بها ، كما أن وجه الأرض فوق النصف الأعلى من الأرض ، وإن لم يكن محيطاً بذلك .

٦/٥٥٧ / وقد قال إياس بن معاوية : السماء على الأرض مثل القبة ، ومعلوم أن الفلك مستدير مثل ذلك ، لكن لفظ القبة يستلزم استدارة من العلو ، ولا يستلزم استدارة من جميع الجوانب إلا بدليل منفصل .

ولفظ الفلك يدل على الاستدارة مطلقاً ، كقوله تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء : ٣٣] ، وقوله تعالى : ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس : ٤٠] ، يقتضى أنها في فلك مستدير مطلقاً ، كما قال ابن عباس - رضي الله عنهما : في فلكة مثل فلكة المغزل .

وأما لفظ القبة ، فإنه لا يتعرض لهذا المعنى ، لا بنفي ولا إثبات ، لكن يدل على الاستدارة من العلو ، كالقبة الموضوعة على الأرض .

وقد قال بعضهم : إن الأفلاك غير السموات ، لكن رد عليه غيره هذا القول ، بأن الله تعالى قال : ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا . وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نوح : ١٥ ، ١٦] ، فأخبر أنه جعل القمر فيهن ، وقد أخبر أنه في الفلك ، وليس هذا موضع بسط الكلام في هذا .

وتحقيق الأمر فيه ، وبيان أن ما علم بالحساب - علماً صحيحاً - لا ينافي ما جاء به السمع ، وإن العلوم السمعية الصحيحة لا تنافي معقولاً صحيحاً ، إذ قد بسطنا الكلام على هذا وأمثاله في غير هذا الموضع ، فإن ذلك يحتاج إليه/ في هذا ونظائره مما قد أشكل على كثير من الناس ، حيث يرون ما يقال : إنه معلوم بالعقل ، مخالفاً لما يقال : إنه معلوم بالسمع ، فأوجب ذلك إن كذبت كل طائفة بما لم تحط بعلمه ، حتى آل الأمر بقوم من أهل الكلام إلى أن تكلموا في معارضة الفلاسفة في «الأفلاك» بكلام ليس معهم به حجة ، لا

(١) أبو داود في السنة (٤٧٢٦) وضعفه الألباني .

من شرع ولا من عقل، وظنوا أن ذلك الكلام من نصر الشريعة، وكان ما جحدوه معلوماً بالأدلة الشرعية أيضاً.

وأما المتفلسفة وأتباعهم، فغابتهم أن يستدلوا بما شاهدوه من الحسيات، ولا يعلمون ما وراء ذلك، مثل أن يعلموا أن البخار المتصاعد ينعقد سحاباً، وأن السحاب إذا اصطك حدث عنه صوت، ونحو ذلك، لكن علمهم بهذا كعلمهم بأن المني يصير في الرحم، لكن ما الموجب لأن يكون المني المتشابه الأجزاء تخلق منه هذه الأعضاء المختلفة، والمنافع المختلفة، على هذا الترتيب المحكم المتقن الذي فيه من الحكمة والرحمة ما بهر الألباب.

وكذلك ما الموجب لأن يكون هذا الهواء، أو البخار منعقداً سحاباً مقدرًا بقدر مخصوص في وقت مخصوص على مكان مختص به؟ وينزل على قوم عند حاجتهم إليه فيسقيهم بقدر الحاجة لا يزيد فيهلكوا ولا ينقص فيعوزوا؟ وما الموجب لأن يساق إلى الأرض الجرز التي لا تمطر، أو تمطر مطراً لا يغنيها - كأرض مصر إذ كان المطر القليل لا يكفيها، والكثير يهدم أبنيتها - قال تعالى: ﴿أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرْزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ [السجدة: ٢٧].

/وكذلك السحاب المتحرك، وقد علم أن كل حركة فإما أن تكون قسرية وهي تابعة للقاسر، أو طوعية. وإنما تكون إذا خرج المطبوع عن مركزه فيطلب عوده إليه، أو إرادية، وهي الأصل، فجميع الحركات تابعة للحركة الإرادية التي تصدر عن ملائكة الله تعالى، التي هي ﴿فَالْمُدَبِّرَاتُ أَمْرًا﴾ [النازعات: ٥]، و﴿فَالْمَقْسِمَاتُ أَمْرًا﴾ [الذاريات: ٤]، وغير ذلك مما أخبر الله به عن الملائكة، وفي المعقول ما يصدق ذلك.

فالكلام في هذا وأمثاله له موضع غير هذا.

والمقصود هنا أن نبين أن ما ذكر في السؤال زائل على كل تقدير، فيكون الكلام في الجواب مبنياً على حجج علمية لا تقليدية، ولا مسلمة، وإذا بينا حصول الجواب على كل تقدير - كما سنوضحه - لم يضرنا بعد ذلك أن يكون بعض التقديرات هو الواقع - وإن كنا نعلم ذلك - لكن تحرير الجواب على تقدير دون تقدير، وإثبات ذلك فيه طول لا يحتاج إليه هنا؛ فإن الجواب إذا كان حاصلاً على كل تقدير كان أحسن وأوجز.

المقام الثاني:

أن يقال: العرش سواء كان هو الفلك التاسع، أو جسماً محيطاً بالفلك التاسع، أو كان فوقه من جهة وجه الأرض غير محيط به، أو قيل فيه غير ذلك، فيجب أن يعلم أن العالم العلوي والسفلي بالنسبة إلى الخالق تعالى في غاية الصغر،/ كما قال تعالى: ﴿وَمَا

قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿ [الزمر: ٦٧] .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : « يقبض الله تبارك وتعالى الأرض يوم القيامة ، ويطوي السماء بيمينه ، ثم يقول : أنا الملك أين ملوك الأرض ؟ » (١) .

وفي الصحيحين - واللفظ لمسلم - عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « يطوي الله السموات يوم القيامة ، ثم يأخذهن بيده اليمنى ، ثم يقول : أنا الملك ، أين الجبارون ؟ أين المتكبرون ؟ ثم يطوي الأرضين بشماله ، ثم يقول : أنا الملك ، أين الجبارون ، أين المتكبرون ؟ » (٢) .

وفي لفظ في الصحيح عن عبد الله بن مقسم : أنه نظر إلى عبد الله بن عمر كيف يحكي أن النبي ﷺ قال : « يأخذ الله سمواته وأرضه بيده ، ويقول : أنا الملك ويقبض أصابعه ويبسطها : أنا الملك » ، حتى نظرت إلى المنبر يتحرك من أسفل شيء منه ، حتى إني أقول : أساقط هو برسول الله ﷺ ؟ (٣) .

/ وفي لفظ قال : رأيت رسول الله ﷺ على المنبر وهو يقول : « يأخذ الجبار سمواته وأرضه ، وحبس بيده وجعل يقبضها ويبسطها ويقول : أنا الرحمن ، أنا الملك ، أنا القدوس ، أنا السلام ، أنا المؤمن ، أنا المهيمن ، أنا العزيز ، أنا الجبار ، أنا المتكبر ، أنا الذي بدأت الدنيا ولم تكن شيئاً ، أنا الذي أعدتها ، أين المتكبرون ؟ أين الجبارون ؟ » وفي لفظ : « أين الجبارون ؟ أين المتكبرون ؟ » ويميل رسول الله ﷺ على يمينه ، وعلى شماله ، حتى نظرت إلى المنبر يتحرك من أسفل شيء منه ، حتى إني لأقول : أساقط هو برسول الله ﷺ ؟ (٤) .

والحديث مروي في الصحيح والمسانيد وغيرها بألفاظ يصدق بعضها بعضاً ، وفي بعض ألفاظه قال : قرأ على المنبر : « وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » الآية [الزمر: ٦٧] .

(١) البخاري في الرقاق (٦٥١٩) ، وفي التوحيد (٧٣٨٢) ، ومسلم في صفات المنافقين (٢٣٨٧/٢٣) .

في المطبوعة تكرر لفظ الحديث عن عبد الله بن عمر ، وهو خطأ ، لأنه لم يرو في الصحيحين بهذا الاستناد ، ولعله ناتج عن اضطراب في الطباعة ولذلك حذفناه .

(٢) البخاري في التوحيد (٧٤١٢) ، ومسلم في صفات المنافقين (٢٧٨٨/٢٤) .

(٣) مسلم في صفات المنافقين (٢٧٨٨/٢٥) .

(٤) ابن ماجه في المقدمة (١٩٨) ، وفي الزهد (٤٢٧٥) .

قال: « مطوية في كفه يرمي بها كما يرمي الغلام بالكرة » وفي لفظ: « يأخذ الجبار سمواته وأرضه بيده فيجعلها في كفه، ثم يقول بهما هكذا كما تقول الصبيان بالكرة: أنا الله الواحد! »^(١).

وقال ابن عباس: يقبض الله عليهما فما ترى طرفاهما بيده، وفي لفظ عنه: « ما السموات السبع والأرضون السبع وما فيهن وما بينهن في يد الرحمن، إلا كخردلة في يد أحدكم »^(٢)، وهذه الآثار معروفة في كتب الحديث.

وفي الصحيحين عن عبد الله بن مسعود قال: أتى النبي ﷺ / رجل من اليهود فقال: يا محمد، إن الله يجعل السموات على أصبع، والأرضين على أصبع، والجبال على أصبع، والماء والثرى على أصبع، وسائر الخلق على أصبع، فيهزهن، فيقول: أنا الملك، أنا الملك، قال: فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواحيه تصدقاً لقول الخبر، ثم قرأ: « ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ »^(٣) الآية [الزمر: ٦٧].

ففي هذه الآية والأحاديث الصحيحة - المفسرة لها المستفيضة التي اتفق أهل العلم على صحتها وتلقيها بالقبول - ما يبين أن السموات والأرض وما بينهما بالنسبة إلى عظمة الله تعالى، أصغر من أن تكون مع قبضه لها إلا كالشيء الصغير في يد أحدنا، حتى يدحوها كما تدحى الكرة.

قال عبد العزيز بن عبد الله بن أبي سلمة الماجشون الإمام نظير مالك - في كلامه المشهور الذي رد فيه على الجهمية ومن خالفها ومن أول كلامه قال -: فأما الذي جحد ما وصف الرب من نفسه تعمقاً وتكلفاً، فقد استهوته الشياطين في الأرض حيران، فصار يستدل بزعمه على جحد ما وصف الرب وسمى من نفسه، بأن قال: لا بد إن كان له كذا من أن يكون له كذا، فعمي عن البين بالخفي، فجحد ما سمي الرب من نفسه، بصمت الرب عما لم يسم منها، فلم يزل يملئ له الشيطان حتى جحد قول الله تعالى: ﴿ وَجْهٌ يَوْمَذِ نَاصِرَةٌ. إِلَيْ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣]، فقال: لا يراه أحد يوم القيامة، فجحد - والله - أفضل كرامة الله التي أكرم بها أوليائه يوم القيامة، من النظر إلى وجهه ونصرتهم / إياهم: ﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ [القمر: ٥٥]، وقد قضى أنهم لا يموتون، فهم بالنظر إليه ينضرون.

(١) ابن جرير ١٧ / ٢٤ . (٢) الدر المنثور ٥ / ٣٣٦ ، وابن جرير ١٧ / ٢٤ .

(٣) البخاري في التفسير (٤٨١١) ، وسلم في صفات المناقطين (٢٧٨٦/١٩-٢١) .

إلى أن قال: وإنما جحد رؤية الله يوم القيامة إقامة للحجة الضالة المضلة؛ لأنه قد عرف أنه إذا تجلّى لهم يوم القيامة، رأوا منه ما كانوا به قبل ذلك مؤمنين، وكان له جاحداً. وقال المسلمون: يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال رسول الله ﷺ: «هل تضارون في رؤية الشمس ليس دونها سحاب؟» قالوا: لا. قال: «فهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب؟» قالوا: لا. قال: «فإنكم ترون ربكم كذلك»^(١).

وقال رسول الله ﷺ: «لا تمتلئ النار حتى يضع الجبار فيها قدمه فتنقول: قط، قط، وينزوي بعضها إلى بعض»^(٢)، وقال لثابت بن قيس: «قد ضحكك الله عما فعلت بضيفك البارحة»^(٣)، وقال - فيما بلغنا عنه: «إن الله يضحك من أزلِكُم وقنوطكم وسرعة إجابتكم»، وقال له رجل من العرب: إن ربنا ليضحك؟ قال: «نعم» قال: لن نعدم من رب يضحك خيراً^(٤). في أشباه لهذا عما لم نحصه.

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] ، ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨]، وقال: ﴿وَلَتَصْنَعَنَّ عَلَيَّ عَيْنِي﴾ [طه: ٣٩]، وقال: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِيَدِي﴾ [ص: ٧٥]، وقال: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧].

٦/٥٦٤ / فوالله ما دلهم على عظم ما وصف به نفسه، وما تحيط به قبضته، إلا صغر نظيرها منهم عندهم إن ذلك الذي ألقى في روعهم، وخلق على معرفته قلوبهم فما وصف الله من نفسه وسماءه على لسان رسوله سميناه كما سماه، ولم نتكلف منه علم ماسواه، لا هذا، ولا هذا، لا نحدد ما وصف، ولا نتكلف معرفة ما لم يصف انتهى. وإذا كان كذلك، فإذا قدر أن المخلوقات كالكرة، وهذا قبضه لها ورميه بها، وإنما بين لنا من عظمتها وصف المخلوقات بالنسبة إليه ما يعقل نظيره منا.

ثم الذي في القرآن والحديث يبين أنه إن شاء قبضها وفعل بها ما ذكر كما يفعل ذلك في يوم القيامة، وإن شاء لم يفعل ذلك، فهو قادر على أن يقبضها ويدحوها كالكرة، وفي ذلك من الإحاطة بها ما لا يخفى، وإن شاء لم يفعل ذلك، وبكل حال فهو مبين لها ليس بمحايث لها.

(١) سبق تخريجه ص ٢٥٨.

(٢) البخارى فى التوحيد (٧٤٤٩) ومسلم فى الجنة (٢٨٤٦ / ٣٥).

(٣) البخارى فى مناقب الأنصار (٣٧٩٨).

(٤) ابن ماجه فى المقدمة (١٨١) بنحوه ، وأحمد ٤ / ١١ ، ١٢ .

ومن المعلوم أن الواحد منا - ولله المثل الأعلى - إذا كان عنده خردلة، إن شاء قبضها فأحاطت بها قبضته، وإن شاء لم يقبضها بل جعلها تحته، فهو في الحالتين مابين لها، وسواء قدر أن العرش هو محيط بالمخلوقات - كإحاطة الكرة بما فيها - أو قيل: إنه فوقها وليس محيطاً بها، كوجه الأرض الذي نحن عليه بالنسبة إلى جوفها، وكالقبة بالنسبة إلى ما تحتها، أو غير ذلك.

فعلى التقديرين، يكون العرش فوق المخلوقات، والخالق - سبحانه وتعالى - فوقه، والعبد في توجهه إلى الله يقصد العلو دون التحت، وتقام هذا ببيان:

٦/٥٦٥ / المقام الثالث:

وهو أن نقول: لا يخلو إما أن يكون العرش كرياً كالأفلاك، ويكون محيطاً بها، وإما أن يكون فوقها وليس هو كرياً، فإن كان الأول، فمن المعلوم باتفاق من يعلم هذا أن الأفلاك مستديرة كرية الشكل، وأن الجهة العليا هي جهة المحيط، وهي المحدث، وأن الجهة السفلى هو المركز، وليس للأفلاك إلاجتهان: العلو والسفل فقط.

وأما الجهات الست فهي الحيوان، فإن له ست جوانب، يؤم جهة فتكون أمامه، ويخلف أخرى فتكون خلفه، وجهة تحاذي يمينه، وجهة تحاذي شماله، وجهة تحاذي رأسه، وجهة تحاذي رجله، وليس لهذه الجهات الست في نفسها صفة لازمة، بل هي بحسب النسبة والإضافة، فيكون يمين هذا ما يكون شمال هذا، ويكون أمام هذا ما يكون خلف هذا، ويكون فوق هذا ما يكون تحت هذا.

لكن جهة العلو والسفل للأفلاك لا تتغير، فالمحيط هو العلو والمركز هو السفلى، مع أن وجه الأرض التي وضعها الله للأنام، وأرسلها بالجبال، هو الذي عليه الناس والبهائم والشجر والنبات، والجبال والأنهار الجارية.

فأما الناحية الأخرى من الأرض فالبحر محيط بها، وليس هناك شيء من الآدميين وما يتبعهم، ولو قدر أن هناك أحداً لكان على ظهر الأرض ولم يكن/ من في هذه الجهة تحت من في هذه الجهة، ولا من في هذه تحت من في هذه، كما أن الأفلاك محيطة بالمركز، وليس أحد جانبي الفلك تحت الآخر، ولا القطب الشمالي تحت الجنوبي، ولا بالعكس.

وإن كان الشمالي هو الظاهر لنا فوق الأرض وارتفاعه بحسب بعد الناس عن خط الاستواء، فما كان بعده عن خط الاستواء ثلاثين درجة مثلاً كان ارتفاع القطب عنده ثلاثين

درجة، وهو الذي يسمى عرض البلد، فكما أن جوانب الأرض المحيطة بها وجوانب الفلك المستديرة ليس بعضها فوق بعض ولا تحته، فكذلك من يكون على الأرض من الحيوان والنبات والأثقال لا يقال: إنه تحت أولئك، وإنما هذا خيال يتخيله الإنسان، وهو تحت إضافي؛ كما لو كانت غلة تمشي تحت سقف فالسقف فوقها، وإن كانت رجالها تحاذيه.

وكذلك من علق منكوساً فإنه تحت السماء، وإن كانت رجاله تلي السماء، وكذلك يتوهم الإنسان إذا كان في أحد جانبي الأرض، أو الفلك أن الجانب الآخر تحته، وهذا أمر لا يتنازع فيه اثنان، ممن يقول: إن الأفلاك مستديرة.

واستدارة الأفلاك - كما أنه قول أهل الهيئة والحساب - فهو الذي عليه علماء المسلمين، كما ذكره أبو الحسن بن المنادي، وأبو محمد بن حزم، وأبو الفرج بن الجوزي وغيرهم أنه متفق عليه بين علماء المسلمين، وقد قال / تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٣]، قال ابن عباس: فلكة مثل فلكة المغزل.

والفلك في اللغة: هو المستدير، ومنه قولهم: تفلك ثدي الجارية إذا استدار، وكل من يعلم أن الأفلاك مستديرة يعلم أن المحيط هو العالي على المركز من كل جانب، ومن توهم أن من يكون في الفلك من ناحية يكون تحته من في الفلك من الناحية الأخرى في نفس الأمر، فهو متوهم عندهم.

وإذا كان الأمر كذلك، فإذا قدر أن العرش مستدير محيط بالملخوقات كان هو أعلاها، وسقفها - وهو فوقها - مطلقاً، فلا يتوجه إليه، وإلى ما فوقه الإنسان إلا من العلو، لا من جهاته الباقية أصلاً.

ومن توجه إلى الفلك التاسع أو الثامن أو غيره من الأفلاك من غير جهة العلو، كان جاهلاً باتفاق العقلاء، فكيف بالتوجه إلى العرش أو إلى ما فوقه وغاية ما يقدر أن يكون كرى الشكل، والله تعالى محيط بالملخوقات كلها إحاطة تليق بجلاله، فإن السموات السبع والأرض في يده أصغر من الحمصة في يد أحدنا.

وأما قول القائل: إذا كان كرياً والله من ورائه محيط به بائن عنه، فما فائدة أن العبد يتوجه إلى الله حين دعائه وعبادته؟ فيقصد العلو دون التحت، فلا فرق حينئذ وقت الدعاء بين قصد جهة العلو وغيرها من الجهات التي تحيط / بالداعي، ومع هذا نجد في قلوبنا قصداً يطلب العلو، لا يلتفت يمينه ولا يسره، فأخبرونا عن هذه الضرورة التي نجدها في قلوبنا، وقد فطرنا عليها.

فيقال له : هذا السؤال إنما ورد لتوهم المتوهم أن نصف الفلك يكون تحت الأرض، وتحت ما على وجه الأرض من الآدميين والبهائم، وهذا غلط عظيم، فلو كان الفلك تحت الأرض من جهة لكان تحتها من كل جهة، فكان يلزم أن يكون الفلك تحت الأرض مطلقاً، وهذا قلب للحقائق ، إذ الفلك هو فوق الأرض مطلقاً.

وأهل الهيئة يقولون: لو أن الأرض مخروقة إلى ناحية أرجلنا وألقي في الخرق شيء ثقيل - كالحجر ونحوه - لكان ينتهي إلى المركز ، حتى لو ألقى من تلك الناحية حجر آخر لالتفيا جميعاً في المركز، ولو قدر أن إنسانين التقيا في المركز بدل الحجرين لالتقت رجلاهما ولم يكن أحدهما تحت صاحبه ، بل كلاهما فوق المركز ، وكلاهما تحت الفلك، كالمشرق والمغرب ، فإنه لو قدر أن رجلاً بالمشرق في السماء أو الأرض ورجلاً بالمغرب في السماء أو الأرض ، لم يكن أحدهما تحت الآخر ، وسواء كان رأسه أو رجلاه أو بطنه أو ظهره أو جانبه مما يلي السماء أو مما يلي الأرض، وإذا كان مطلوب أحدهما ما فوق الفلك لم يطلبه إلا من الجهة العليا ، لم يطلبه من جهة رجله أو يمينه أو يساره لوجهين:

أحدهما : أن مطلوبه من الجهة العليا أقرب إليه من جميع الجهات، فلو قدر رجل أو ملك يصعد إلى السماء، أو إلى ما فوق ، كان صعوده مما يلي رأسه/ أقرب إذا أمكنه ذلك، ولا يقول عاقل: إنه يخرق الأرض ثم يصعد من تلك الناحية، ولا إنه يذهب يميناً أو شمالاً، أو أماماً أو خلفاً، إلى حيث أمكن من الأرض ثم يصعد ؛ لأنه أي مكان ذهب إليه كان بمنزلة مكانه أو هو دونه، وكان الفلك فوقه، فيكون ذهابه إلى الجهات الخمس تطويلاً وتعباً من غير فائدة.

ولو أن رجلاً أراد أن يخاطب الشمس والقمر فإنه لا يخاطبه إلا من الجهة العليا، مع أن الشمس والقمر قد تشرق وقد تغرب ، فتتحرف عن سمت الرأس، فكيف بمن هو فوق كل شيء دائماً لا يأفل ولا يغيب سبحانه وتعالى ؟

وكما أن الحركة كحركة الحجر تطلب مركزها بأقصر طريق - وهو الخط المستقيم - فالطلب الإرادي الذي يقوم بقلوب العباد كيف يعدل عن الصراط المستقيم القريب، إلى طريق منحرف طويل ، والله تعالى فطر عباده على الصحة والاستقامة ، إلا من اجتالته الشياطين فأخرجته عن فطرته التي فطر عليها.

الوجه الثاني: أنه إذا قصد السفلى بلا علو كان ينتهي قصده إلى المركز وأن قصده أمامه أو ورائه أو يمينه أو يساره، من غير قصد العلو، كان منتهى قصده أجزاء الهواء، فلا بد له

من قصد العلو ضرورة ، سواء قصد مع ذلك هذه الجهات أو لم يقصدها .

ولو فرض أنه قال : أقصده من اليمين مع العلو ، أو من السفلى مع العلو ، كان هذا بمنزلة من يقول : أريد أن أحج من المغرب ، فاذهب إلى خراسان ، ثم أذهب إلى مكة ، بل بمنزلة من يقول : أصعد إلى الأفلاك ، فأنزل في الأرض ، / ثم أصعد إلى الفلك من الناحية الأخرى ، فهذا وإن كان ممكناً في المقدور ، لكنه مستحيل من جهة امتناع إرادة القاصد له ، وهو مخالف للفطرة ، فإن القاصد يطلب مقصوده بأقرب طريق ، لا سيما إذا كان مقصوده معبوده الذي يعبد ويتوكل عليه ، وإذا توجه إليه على غير الصراط المستقيم كان سيره منكوساً معكوساً .

وأيضاً ، فإن هذا يجمع في سيره وقصده بين النفي والإثبات ، بين أن يتقرب إلى المقصود ويتباعد عنه ، ويريده وينفر عنه ، فإنه إذا توجه إليه من الوجه الذي هو عنه أبعد وأقصى وعدل عن الوجه الأقرب الأدنى ، كان جامعاً بين قصدين متناقضين ، فلا يكون قصده له تاماً ، إذ القصد التام ينفي تقيضه وضده ، وهذا معلوم بالفطرة .

فإن الشخص إذا كان يحب النبي ﷺ محبة تامة ويقصده أو يحب غيره ممن يحب - سواء كانت محبته محمودة أو مذمومة - متى كانت المحبة تامة ، وطلب المحبوب طلبه من أقرب طريق يصل إليه ، بخلاف ما إذا كانت المحبة مترددة مثل : أن يحب ما تكره محبته في الدين ، فتبقى شهوته تدعوه إلى قصده ، وعقله ينهيه عن ذلك ، فتراه يقصده من طريق بعيد ، كما تقول العامة : رجل إلى قدام ، ورجل إلى خلف .

وكذلك إذا كان في دينه نقص ، وعقله يأمره بقصد المسجد أو الجهاد أو غير ذلك من القصود التي تحب في الدين وتكرهها النفس ، فإنه يبقى قاصداً لذلك من طريق بعيد متباطئاً في السير ، وهذا كله معلوم بالفطرة .

/ وكذلك إذا لم يكن القاصد يريد الذهاب بنفسه ، بل يريد خطاب المقصود ودعائه ونحو ذلك ، فإنه يخاطبه من أقرب جهة يسمع دعاء منها ، و ينال به مقصوده إذا كان القصد تاماً .

ولو كان رجل في مكان عال ، وآخر يناديه ؛ لتوجه إليه وناداه ، ولو حط رأسه في بئر وناداه بحيث يسمع صوته لكان هذا ممكناً ، لكن ليس في الفطرة أن يفعل ذلك من يكون قصده إسماعه من غير مصلحة راجحة ، ولا يفعل نحو ذلك إلا عند ضعف القصد ونحوه .

وحديث الإدلاء الذي روى من حديث أبي هريرة وأبي ذر - رضي الله عنهما - قد رواه الترمذي وغيره^(١)، من حديث الحسن البصري عن أبي هريرة وهو منقطع، فإن الحسن لم يسمع من أبي هريرة، ولكن يقويه حديث أبي ذر المرفوع، فإن كان ثابتاً فمعناه موافق لهذا، فإن قوله: «لو أدلى أحدكم بحبل لهبط على الله» إنما هو تقدير مفروض، أي لو وقع الإدلاء لوقع عليه، لكنه لا يمكن أن يدلي أحد على الله شيئاً؛ لأنه عال بالذات وإذا أهبط شيء إلى جهة الأرض وقف في المركز ولم يصعد إلى الجهة الأخرى، لكن بتقدير فرض الإدلاء، يكون ما ذكر من الجزء.

فهكذا ما ذكره السائل: إذا قدر أن العبد يقصده من تلك الجهة. كان هو - سبحانه - يسمع كلامه، وكان متوجهاً إليه بقلبه، لكن هذا مما تمنع منه الفطرة؛ لأن قصد الشيء القصد التام ينافي قصد ضده، فكما أن الجهة العليا بالذات تنافي / الجهة السفلى فكذلك قصد الأعلى بالذات ينافي قصده من أسفل، وكما أن ما يهبط إلى جوف الأرض يمتنع صعوده إلى تلك الناحية - لأنها عالية - فتد الهابط بعلوها، كما أن الجهة العليا من عندنا ترد ما يصعد إليها من الثقل، فلا يصعد الثقل إلا برافع يرفعه يدافع به ما في قوته من الهبوط، فكذلك ما يهبط من أعلى الأرض إلى أسفلها - وهو المركز - لا يصعد من هناك إلى ذلك الوجه إلا برافع يرفعه، يدافع به ما في قوته من الهبوط إلى المركز، فإن قدر أن الدافع أقوى كان صاعداً به إلى الفلك من تلك الناحية، وصعد به إلى الله، وإنما يسمى هبوطاً باعتبار ما في أذهان المخاطبين أن ما يحاذي أرجلهم يكون هابطاً، ويسمى هبوطاً مع تسمية إهابه إدلاء، وهو إنما يكون إدلاء حقيقياً إلى المركز، ومن هناك إنما يكون مدا للحبل، والدلو، لا إدلاء له، لكن الجزء والشرط مقدران لا محققان.

٦/٥٧٢

فإنه قال: لو أدلى لهبط؛ أي لو فرض أن هناك إدلاء لفرض أن هناك هبوطاً، وهو يكون إدلاء وهبوطاً إذا قدر أن السموات تحت الأرض وهذا التقدير متنفذ، ولكن فائدته بيان الإحاطة والعلو من كل جانب، وهذا المفروض ممتنع في حقنا لا نقدر عليه، فلا يتصور أن يدلي ولا يتصور أن يهبط على الله شيء لكن الله قادر على أن يخرق من هنا إلى هناك بحبل، ولكن لا يكون في حقه إدلاء، فلا يكون في حقه هبوطاً عليه.

كما لو خرق بحبل من القطب إلى القطب، أو من مشرق الشمس إلى مغربها، / وقد رنا أن الحبل مر في وسط الأرض، فإن الله قادر على ذلك كله، ولا فرق بالنسبة إليه على هذا التقدير من أن يخرق من جانب اليمين منا إلى جانب اليسار، أو من جهة أمامنا

٦/٥٧٣

(١) الترمذي في تفسير القرآن (٣٢٩٨) وقال: «هذا حديث غريب من هذا الوجه»، وأحمد ٢/ ٣٧٠.

إلى جهة خلفنا، أو من جهة رؤوسنا إلى جهة أرجلنا إذا مر الحبل بالأرض، فعلى كل تقدير قد خرق بالحبل من جانب المحيط إلى جانبه الآخر، مع خرق المركز، وبتقدير إحاطة قبضته بالسموات والأرض، فالحبل الذي قدر أنه خرق به العالم وصل إليه، ولا يسمى شيء من ذلك بالنسبة إليه إدلاء ولا هبوطاً.

وأما بالنسبة إلينا فإن ما تحت أرجلنا تحت لنا، وما فوق رؤوسنا فوق لنا، وما ندليه من ناحية رؤوسنا إلى ناحية أرجلنا نتخيل أنه هابط، فإذا قدر أن أحدنا أدلى بحبل كان هابطاً على ما هناك، لكن هذا تقدير ممتنع في حقنا، والمقصود به بيان إحاطة الخالق سبحانه وتعالى، كما بين أنه يقبض السموات ويطوي الأرض ونحو ذلك مما فيه بيان إحاطته بالخلوقات.

ولهذا قرأ في تمام هذا الحديث : «هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ» [الحديد: ٣]. وهذا كله على تقدير صحته، فإن الترمذي لما رواه قال: وفسره بعض أهل الحديث بأنه هبط على علم الله^(١)، وبعض الحلولية والاتحادية يظن أن في هذا الحديث ما يدل على قولهم الباطل، وهو أنه حال بذاته في كل مكان، وأن وجوده وجود الأمكنة ونحو ذلك.

والتحقيق : أن الحديث لا يدل على شيء من ذلك إن كان ثابتاً، فإن قوله: / « لو أدلى بحبل لهبط » يدل على أنه ليس في المدلى ولا في الحبل، ولا في الدلو ولا في غير ذلك، وإنها تقتضي أنه من تلك الناحية، وكذلك تأويله بالعلم تأويل ظاهر الفساد، من جنس تأويلات الجهمية، بل بتقدير ثبوته يكون دالاً على الإحاطة.

والإحاطة قد علم أن الله قادر عليها، وعلم أنها تكون يوم القيامة بالكتاب والسنة، وليس في إثباتها في الجملة ما يخالف العقل ولا الشرع، لكن لا نتكلم إلا بما نعلم، وما لا نعلمه أمسكنا عنه، وما كان مقدمة دليله مشكوكاً فيها عند بعض الناس، كان حقه أن يشك فيه، حتى يتبين له الحق، وإلا فليست عما لم يعلم.

وإذا تبين هذا، فكذلك قاصده يقصده إلى تلك الناحية، ولو فرض أننا فعلناه لكنا قاصدين له على هذا التقدير، لكن قصدنا له بالقصد إلى تلك الجهة ممتنع في حقنا؛ لأن القصد التام الجازم يوجب طلب المقصود بحسب الإمكان.

ولهذا قد بينا في غير هذا الموضع - لما تكلمنا على تنازع الناس في النية المجردة عن الفعل هل يعاقب عليها أم لا يعاقب؟ بينا - أن الإرادة الجازمة توجب أن يفعل المرید ما يقدر

(١) انظر : تعليقه على الحديث رقم (٣٢٩٨).

عليه من المراد، ومتى لم يفعل مقدوره لم تكن إرادته جازمة، بل يكون هما ، ومن هم بسيطة فلم يفعلها لم تكتب عليه، فإن تركها لله كتبت له حسنة.

ولهذا وقع الفرق بين هم يوسف - عليه السلام - وهم امرأة العزيز ، كما قال / الإمام أحمد: الهم همان: هم خطرات وهم إصرار. فيوسف - عليه السلام - هم هما تركه لله فأثيب عليه، وتلك همت هم إصرار ففعلت ما قدرت عليه من تحصيل مرادها، وإن لم يحصل لها المطلوب.

والذين قالوا: يعاقب بالإرادة ، احتجاجوا بقوله ﷺ: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار» قالوا: يا رسول الله ، هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال : « إنه أراد قتل صاحبه»، وفي رواية : « إنه كان حريصاً على قتل صاحبه»^(١). فهذا أراد إرادة جازمة، وفعل ما يقدر عليه، وإن لم يدرك مطلوبه ، فهو بمنزلة امرأة العزيز، فمتى كان القصد جازماً، لزم أن يفعل القاصد ما يقدر عليه من حصول المقصود ، فإذا كان قادراً على حصول مقصوده بطريق مستقيم امتنع مع القصد التام أن يحصله بطريق معكوس من بعيد.

فلهذا امتنع في فعل العباد عند ضرورتهم ، ودعائهم لله - تعالى - وتأم قصدهم له ألا يتوجهوا إليه إلا توجهاً مستقيماً، فيتوجهوا إلى العلو دون سائر الجهات؛ لأنه الصراط المستقيم ، القريب . وما سواه فيه من البعد والانحراف والطول ما فيه، فمع القصد التام الذي هو حال الداعي العابد، والسائل المضطر يمتنع أن يتوجه إليه إلا إلى العلو، ويمتنع أن يتوجه إليه إلى جهة أخرى، كما يمتنع أن يدلي بحبل يهبط عليه، فهذا هذا ، والله أعلم.

وأما من جهة الشريعة فإن الرسل - صلوات الله عليهم - بعثوا بتكميل الفطرة وتقريرها، لا بتبديل الفطرة وتغييرها، قال ﷺ في الحديث / المتفق عليه : « كل مولود يولد على الفطرة، فأبوه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء؟»^(٢).

وقال الله تعالى : ﴿ فَأَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقِيمُ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم : ٣٠]، فجاءت الشريعة في العبادة والدعاء بما يوافق الفطرة ، بخلاف ما عليه أهل الضلال من المشركين والصابئين

(١) النسائي في تحريم الدماء (٤١١٨) ، وابن ماجه في الفتن (٣٩٦٤) قال البوصيري في الزوائد : «إسناده صحيح ، ورجاله ثقات».

(٢) البخاري في الجنائز (١٣٨٥) ومسلم في القدر (٢٦٥٨ / ٢٢) .

المتفلسفة وغيرهم ، فإنهم غيروا الفطرة في العلم والإرادة جميعاً وخالفوا العقل والنقل ، كما قد بسطناه في غير هذا الموضع .

وقد ثبت في الصحيحين من غير وجه : أن النبي ﷺ قال : « إذا قام أحدكم إلى الصلاة فلا يصقن قبل وجهه ، فإن الله قبل وجهه ، ولا عن يمينه فإن عن يمينه ملكاً ، ولكن عن يساره أو تحت قدمه » ، وفي رواية : « إنه أذن أن يبصق في ثوبه »^(١) .

وفي حديث أبي رزين المشهور ، الذي رواه عن النبي ﷺ : لما أخبر النبي ﷺ أنه ما من أحد إلا سيخلوا به ربه . فقال له أبو رزين : كيف يسعنا يا رسول الله وهو واحد ، ونحن جميع ؟ فقال : « سأنبئك بمثل ذلك في آلاء الله ! هذا القمر آية من آيات الله كلكم يراه مخلياً به ، فالله أكبر »^(٢) .

ومن المعلوم أن من توجه إلى القمر وخطبه - إذا قدر أن يخطبه - / لا يتوجه إليه إلا بوجهه مع كونه فوقه ، فهو مستقبل له بوجهه مع كونه فوقه ، ومن الممتنع في الفطرة أن يستدبره ويخطبه مع قصده التام له ، وإن كان ذلك ممكناً ، وإنما يفعل ذلك من ليس مقصوده مخاطبته ، كما يفعل من ليس مقصوده التوجه إلى شخص بخطاب ، فيعرض عنه بوجهه ويخطب غيره ، لسمع هو الخطاب ، فأما مع زوال المانع فإنما يتوجه إليه ، فكذلك العبد إذا قام إلى الصلاة ، فإنه يستقبل ربه وهو فوقه ، فيدعوه من تلقائه لا من يمينه ولا من شماله ، ويدعوه من العلو لا من السفلى ، كما إذا قدر أنه يخطب القمر .

وقد ثبت في الصحيحين أنه قال : « ليتتهين أقوام عن رفع أبصارهم في الصلاة أو لا ترجع إليهم أبصارهم »^(٣) ، واتفق العلماء على أن رفع المصلي بصره إلى السماء منهي عنه ، وروى أحمد عن محمد بن سيرين : أن النبي ﷺ كان يرفع بصره في الصلاة إلى السماء حتى أنزل الله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾^(٤) [المؤمنون : ١ ، ٢] فكان بصره لا يجاوز موضع سجوده ، فهذا مما جاءت به الشريعة تكميلاً للفطرة ؛ لأن الداعي السائل الذي يؤمر بالخشوع وهو الذل والسكوت - لا يناسب حاله أن ينظر إلى ناحية من يدعوه ويسأله بل يناسب حاله الإطراق ، وغض بصره أمامه .

وليس نهى المصلي عن رفع بصره في الصلاة ردّاً على أهل الإثبات الذين يقولون : إنه على العرش ، كما يظنه بعض جهال الجهمية ، فإن الجهمية عندهم لا فرق / بين العرش

(١) البخاري في الصلاة (٤١٣) ومسلم في المساجد (٥٥١ / ٥٤) .

(٢) أبو داود في السنة (٤٧٣١) ، وابن ماجه في المقدمة (١٨٠) ، وأحمد ١١ / ٤ ، ١٢ .

(٣) البخاري في الأذان (٧٥٠) عن أنس بن مالك ، ومسلم في الصلاة (١١٧ / ٤٢٨) عن جابر بن سمرة .

(٤) ابن جرير في التفسير ٣ / ١٨ ، والبيهقي في السنن الكبرى ٢ / ٢٨٣ ، والسيوطي في الدر المنثور ٣ / ٥ .

وقعر البحر، فالجميع سواء، ولو كان كذلك لم ينه عن رفع البصر إلى جهة ويؤمر برده إلى أخرى ، لأن هذه وهذه عند الجهمية سواء .

وأيضاً ، فلو كان الأمر كذلك لكان النهي عن رفع البصر شاملاً لجميع أحوال العبد، وقد قال تعالى : ﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ﴾ [البقرة: ١٤٤] ، فليس العبد ينهى عن رفع بصره مطلقاً، وإنما نهى في الوقت الذي يؤمر فيه بالخشوع؛ لأن خفض البصر من تمام الخشوع، كما قال تعالى : ﴿ خَشَعُوا أَبْصَارَهُمْ يُخْرِجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ ﴾ [القمر: ٧] ، وقال تعالى : ﴿ وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الدَّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ ﴾ [الشورى : ٤٥] .

وأيضاً ، فلو كان النهي عن رفع البصر إلى السماء وليس في السماء إله ، لكان لا فرق بين رفعه إلى السماء وردّه إلى جميع الجهات، ولو كان مقصوده أن ينهي الناس أن يعتقدوا أن الله في السماء ، أو يقصدوا بقلوبهم التوجه إلى العلو، لبين لهم ذلك كما بين لهم سائر الأحكام، فكيف وليس في كتاب الله، ولا سنة رسوله، ولا في قول سلف الأمة حرف واحد يذكر فيه أنه ليس الله فوق العرش أو أنه ليس فوق السماء ، أو أنه لا داخل العالم ولا خارجه، ولا محايث له ولا مباين له، أو أنه لا يقصد العبد إذا دعاه العلو دون سائر الجهات؟! بل جميع ما يقوله الجهمية من النفي - ويزعمون أنه الحق - ليس معهم به حرف من كتاب الله ولا سنة رسوله، ولا قول أحد من سلف الأمة وأئمتها، بل الكتاب والسنة وأقوال السلف والأئمة مملوءة بما يدل على نقيض قولهم ، وهم يقولون:

٦/٥٧٩

/ إن ظاهر ذلك كفر، فنؤول ، أو نفوض ، فعلى قولهم ليس في الكتاب والسنة، وأقوال السلف والأئمة في هذا الباب إلا ما ظاهره الكفر، وليس فيها من الإيمان في هذا الباب شيء، والسلب الذي يزعمون أنه الحق - الذي يجب على المؤمن أو خواص المؤمنين اعتقاده عندهم - لم ينطق به رسول ، ولا نبي ، ولا أحد من ورثة الأنبياء والمرسلين، والذي نطقت به الأنبياء وورثتهم ليس عندهم هو الحق، بل هو مخالف للحق في الظاهر، بل وحذاقهم يعلمون أنه مخالف للحق في الظاهر والباطن .

لكن هؤلاء منهم من يزعم أن الأنبياء لم يمكنهم أن يخاطبوا الناس إلا بخلاف الحق الباطن، فلبسوا وكذبوا لمصلحة العامة، فيقال لهم: فهلا نطقوا بالباطن لخواصهم الأذكياء الفضلاء إن كان ما يزعمونه حقاً ؟

وقد علم أن خواص الرسل هم على الإثبات - أيضاً - وأنه لم ينطق بالنفي أحد منهم إلا أن يكذب على أحدهم ، كما يقال عن عمر: أن النبي ﷺ وأبا بكر كانا يتحدثان وكنت كالزنجي بينهما ، وهذا مختلق باتفاق أهل العلم ، وكذلك ما نقل عن علي وأهل بيته: أن

عندهم علماً باطناً يخالف الظاهر الذي عند جمهور الأمة ، وقد ثبت في الصحاح وغيرها عن علي - رضي الله عنه - أنه لم يكن عندهم من النبي ﷺ سر ليس عند الناس ، ولا كتاب مكتوب إلا ما كان في الصحيفة ، وفيها : الديات ، وفِكَاك الأسير وألا يقتل مسلم بكافر^(١).

٦/٥٨٠ / ثم إنه من المعلوم أن من جعله الله هادياً مبلغاً بلسان عربي مبين ، إذا كان لا يتكلم قط إلا بما يخالف الحق الباطن الحقيقي ، فهو إلى الضلال والتدليس أقرب منه إلى الهدى والبيان ، وبسط الرد عليهم له موضع غير هذا. والمقصود أن ماجاء عن النبي ﷺ في هذا الباب وغيره كله حق يصدق بعضه بعضاً ، وهو موافق لفطرة الخلائق ، وما جعل فيهم من العقول الصريحة ، والقصود الصحيحة ، لا يخالف العقل الصريح ، ولا القصد الصحيح ، ولا الفطرة المستقيمة ، ولا النقل الصحيح الثابت عن رسول الله ﷺ.

وإنما يظن تعارضها : من صدق بباطل من النقول ، أو فهم منه ما لم يدل عليه ، أو اعتقد شيئاً ظنه من العقليات وهو من الجهليات ، أو من الكشوفات وهو من الكسوفات - إن كان ذلك معارضاً لمنقول صحيح - وإلا عارض بالعقل الصريح ، أو الكشف الصحيح ، ما يظنه منقولاً عن النبي ﷺ ، ويكون كذباً عليه ، أو ما يظنه لفظاً دالاً على شيء ولا يكون دالاً عليه ، كما ذكره في قوله ﷺ : « الحجر الأسود يمين الله في الأرض ، فمن صافحه وقبله فكأنما صافح الله وقبل يمينه »^(٢) ؛ حيث ظنوا أن هذا وأمثاله يحتاج إلى التأويل ، وهذا غلط منهم - لو كان هذا اللفظ ثابتاً عن النبي ﷺ - فإن هذا اللفظ صريح في أن الحجر ليس هو من صفات الله ، إذ قال : « هو يمين الله في الأرض » ، فتقيده بالأرض يدل على أنه ليس هو يده على / الإطلاق ، فلا يكون اليد الحقيقية ، وقوله : « فمن صافحه وقبله فكأنما صافح الله وقبل يمينه » صريح في أن مصافحه ومقبله ليس مصافحاً لله ولا مقبلاً ليمينه ؛ لأن المشبه ليس هو المشبه به ، وقد أتى بقوله : « فكأنما » ، وهي صريحة في التشبيه ، وإذا كان اللفظ صريحاً في أنه جعل بمنزلة اليمين ، لا أنه نفس اليمين كان من اعتقد أن ظاهره أنه حقيقة اليمين قائلاً للكذب المبين .

فهذا كله بتقدير أن يكون العرش كرى الشكل ، سواء كان هو الفلك التاسع أو غير الفلك التاسع ، قد تبين أن سطحه هو سقف المخلوقات ، وهو العالي عليها من جميع الجوانب ، وأنه لا يجوز أن يكون شيء مما في السماء والأرض فوقه ، وأن القاصد إلى ما

(١) البخاري في العلم (١١١) .

(٢) الجامع الصغير للسيوطي (٣٨٠٤) وأشار لضعفه .

فوق العرش - بهذا التقدير - إنما يقصد إلى العلو، لا يجوز في الفطرة ولا في الشرعة - مع تمام قصده - أن يقصد جهة أخرى من جهاته الست، بل هو أيضاً يستقبله بوجهه مع كونه أعلى منه، كما ضربه النبي ﷺ مثلاً من المثل بالقمر - ولله المثل الأعلى - وبين أن مثل هذا إذا جاز في القمر - وهو آية من آيات الله تعالى - فالخالق أعلى وأعظم.

وأما إذا قدر أن العرش ليس كرى الشكل، بل هو فوق العالم من الجهة التي هي وجه الأرض، وأنه فوق الأفلاك الكرية، كما أن وجه الأرض الموضوع للأنام فوق نصف الأرض الكري، أو غير ذلك من المقادير التي يقدر فيها أن العرش فوق ما سواه وليس كرى الشكل، فعلى كل تقدير لا تتوجه إلى الله إلا إلى العلو لا إلى غير ذلك من الجهات.

٦/٥٨٢ / فقد ظهر أنه - على كل تقدير - لا يجوز أن يكون التوجه إلى الله إلا إلى العلو، مع كونه على عرشه مبيناً لخلقه، وسواء قدر مع ذلك أنه محيط بالمخلوقات - كما يحيط بها إذا كانت في قبضته - أو قدر مع ذلك أنه فوقها من غير أن يقبضها ويحيط بها، فهو على التقديرين يكون فوقها مبيناً لها، فقد تبين أنه على هذا التقدير في الخالق وعلى هذا التقدير في العرش، لا يلزم شيء من المحذور والتناقض، وهذا يزيل كل شبهة، وإنما تنشأ الشبهة في اعتقادين فاسدين.

أحدهما: أن يظن أن العرش إذا كان كرياً والله فوقه، وجب أن يكون الله كرياً، ثم يعتقد أنه إذا كان كرياً فيصح التوجه إلى ما هو كرى - كالفلك التاسع - من جميع الجهات، وكل من هذين الاعتقادين خطأ وضلال، فإن الله مع كونه فوق العرش، ومع القول بأن العرش كرى - سواء كان هو التاسع أو غيره - لا يجوز أن يظن أنه مشابه للأفلاك في أشكالها، كما لا يجوز أن يظن أنه مشابه لها في أقدارها، ولا في صفاتها - سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً - بل قد تبين أنه أعظم وأكبر من أن تكون المخلوقات عنده بمنزلة داخل الفلك في الفلك، وإنها عنده أصغر من الحمصة والفلفلة ونحو ذلك في يد أحدنا، فإذا كانت الحمصة أو الفلفلة - بل الدرهم والدينار، أو الكرة التي يلعب بها الصبيان ونحو ذلك، في يد الإنسان أو تحته أو نحو ذلك، هل يتصور عاقل إذا استشعر علو الإنسان على ذلك وإحاطته به أن يكون الإنسان كالفلك؟ والله - ولله المثل الأعلى - أعظم من أن يظن ذلك به، وإنما يظنه / الذين ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧].

٦/٥٨٣

وكذلك اعتقادهم الثاني: وهو أن ما كان فلکاً فإنه يصح التوجه إليه من الجهات الست خطأ باتفاق أهل العقل، الذين يعلمون الهيئة، وأهل العقل الذين يعلمون أن

القصد الجازم يوجب فعل المقصود بحسب الإمكان.

لقد تبين أن كل واحد من المقدمتين خطأ في العقل والشرع، وأنه لا يجوز أن تتوجه القلوب إليه إلا إلى العلو، لا إلى غيره من الجهات على كل تقدير يفرض من التقديرات سواء كان العرش هو الفلك التاسع أو غيره، سواء كان محيطاً بالفلك كروي الشكل أو كان فوقه من غير أن يكون كروياً ، سواء كان الخالق - سبحانه - محيطاً بالمخلوقات كما يحيط بها في قبضته، أو كان فوقها من جهة العلو منا التي تلي رؤوسنا، دون الجهة الأخرى.

فعلى أي تقدير فرض ، كان كل من مقدمتي السؤال باطلة، وكان الله - تعالى - إذا دعونه، إنما ندعوه بقصد العلو دون غيره، كما فطرنا على ذلك.

وبهذا يظهر الجواب عن السؤال من وجوه متعددة ، والله أعلم.

/ سئل - رحمه الله : هل العرش والكرسي موجودان ، أم مجاز؟ وهل مذهب أهل السنة على أن الله تعالى كلم موسى شفاهاً منه إليه بلا واسطة ؟ وهل الذي رآه موسى كان نوراً أم ناراً؟

فأجاب - رضي الله عنه :

الحمد لله ، بل العرش موجود بالكتاب والسنة ، وإجماع سلف الأمة وأئمتها ، وكذلك الكرسي ثابت بالكتاب والسنة وإجماع جمهور السلف .

وقد نقل عن بعضهم : أن كرسيه علمه ، وهو قول ضعيف فإن علم الله وسع كل شيء ، كما قال : ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا ﴾ [غافر: ٧] .

والله يعلم نفسه ويعلم ما كان وما لم يكن ، فلو قيل : وسع علمه السموات والأرض ، لم يكن هذا المعنى مناسباً ، لا سيما وقد قال تعالى : ﴿ وَلَا يُؤْودُهُ حِفْظُهُمَا ﴾ [البقرة: ٢٥٥] . أي لا يثقله ولا يكرثه ، وهذا يناسب القدرة لا العلم ، والآثار الماثورة تقتضي ذلك ؛ لكن الآيات والأحاديث في العرش أكثر من ذلك ، صريحة متواترة .

/ وقد قال بعضهم : إن الكرسي هو العرش ؛ لكن الأكثرون على أنهما شيان .

وأما موسى فإن الله كلمه بلا واسطة باتفاق المسلمين أهل السنة وأهل البدعة ، لم يقل أحد من المسلمين أن موسى كان بينه وبين الله واسطة في التكليم لا أهل السنة ، ولا الجهمية ، ولا من المعتزلة ، ولا الكلائية ، ولا غيرهم ، ولكن بينهم نزاع في غير هذا .

والذي رآه موسى كان ناراً بنص القرآن ، وهو أيضاً نور كما في الحديث و النار هي نور ، والله أعلم .

/ سئل عن رجلين تنازعا في كيفية السماء والأرض هل هما جسمان كريان؟ فقال أحدهما : كريان، وأنكر الآخر هذه المقالة، وقال: ليس لها أصل وردها، فما الصواب ؟

فأجاب:

السموات مستديرة عند علماء المسلمين ، وقد حكى إجماع المسلمين على ذلك غير واحد من العلماء أئمة الإسلام: مثل أبي الحسين أحمد بن جعفر بن المنادي، أحد الأعيان الكبار، من الطبقة الثانية من أصحاب الإمام أحمد، وله نحو أربعمئة مصنف.

وحكى الإجماع على ذلك الإمام أبو محمد بن حزم، وأبو الفرج بن الجوزي ، وروى العلماء ذلك بالأسانيد المعروفة عن الصحابة والتابعين، وذكروا ذلك من كتاب الله وسنة رسوله، وبسطوا القول في ذلك بالدلائل السمعية.

وإن كان قد أقيم على ذلك أيضاً دلائل حسابية.

ولا أعلم في علماء المسلمين المعروفين من أنكر ذلك؛ إلا فرقة يسيرة من أهل الجدل لما ناظروا المنجمين، فأفسدوا عليهم فاسد مذهبهم في الأحوال / والتأثير، خلطوا الكلام معهم بالمناظرة في الحساب، وقالوا على سبيل التجويز يجوز أن تكون مربعة أو مسدسة أو غير ذلك ، ولم ينفوا أن تكون مستديرة لكن جوزوا ضد ذلك، وما علمت من قال أنها غير مستديرة - وجزم بذلك - إلا من لا يؤبه له من الجهال.

ومن الأدلة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠].

قال ابن عباس وغيره من السلف: في فلكة مثل فلكة المغزل، وهذا صريح بالاستدارة والدوران، وأصل ذلك: أن الفلك في اللغة: هو الشيء المستدير، يقال: تفلك ثدي الجارية إذا استدار، ويقال لفلكة المغزل المستديرة: فلكة، لاستدارتها.

فقد اتفق أهل التفسير واللغة على أن الفلك: هو المستدير، والمعرفة لمعاني كتاب الله إنما تؤخذ من هذين الطريقتين: من أهل التفسير الموثوق بهم من السلف ، ومن اللغة : التي نزل القرآن بها، وهي لغة العرب.

وقال تعالى : ﴿ يَكُونُ اللَّيْلُ عَلَى النَّهَارِ وَيَكُونُ النَّهَارُ عَلَى اللَّيْلِ ﴾ [الزمر: ٥] ، قالوا : والتكوير: التدوير ، يقال : كورت العمامة ، وكورتها : إذا دورتها ، ويقال : للمستدير كارة ، وأصله كورة ، تحركت الواو وانفتح ما قبلها فقلت ألفاً ، / ويقال أيضاً : كرة وأصله كورة ، وإنما حذفت عين الكلمة كما قيل في ثبة وقلة .

والليل والنهار ، وسائر أحوال الزمان تابعة للحركة ، فإن الزمان مقدار الحركة ، والحركة قائمة بالجسم المتحرك ، فإذا كان الزمان التابع للحركة التابعة للجسم موصوفاً بالاستدارة ، كان الجسم أولى بالاستدارة .

وقال تعالى : ﴿ مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ ﴾ [الملك : ٣] ، وليس في السماء إلا أجسام ما هو متشابه - فأما التثليث ، والتربيع ، والتخميس ، والتسديس ، وغير ذلك : ففيها تفاوت واختلاف ، بالزوايا والأضلاع - لا خلاف فيه ، ولا تفاوت ، إذ الاستدارة التي هي الجوانب .

وفي الحديث المشهور في سنن أبي داود وغيره ، عن جُبَيْرِ بْنِ مُطْعَمٍ ، أن أعرابياً جاء إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ، جهدت الأنفس ، وهلك المال ، وجاع العيال ، فاستسقى لنا ، فإننا نستشفع بالله عليك ، ونستشفع بك على الله ، فسمح رسول الله ﷺ حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه ، وقال : « ويحك ! إن الله لا يستشفع به على أحد من خلقه ، شأن الله أعظم من ذلك ، إن عرشه على سمواته هكذا » وقال بيده مثل القبة ، « وإنه يعط به أطيط الرحل الجديد براكيه » (١) .

فأخبر النبي ﷺ أن العرش على السموات مثل القبة ، وهذا إشارة إلى العلو والإدارة . / وفي الصحيحين عن النبي ﷺ قال : « إذا سألتكم الله الجنة فاسألوه الفردوس ، فإنه أعلى الجنة ، وأوسط الجنة ، وسقفه عرش الرحمن » (٢) ، والأوسط لا يكون أوسط إلا في المستدير وقد قال إياس بن معاوية : السماء على الأرض مثل القبة ، والآثار في ذلك لا تحتملها الفتوى ، وإنما كتبت هذا على عجل .

والحس مع العقل يدل على ذلك ، فإنه مع تأمل دوران الكواكب القريبة من القطب في مدار ضيق حول القطب الشمالي ، ثم دوران الكواكب المتوسطة في السماء في مدار واسع ، وكيف يكون في أول الليل ، وفي آخره ؟ يعلم ذلك .

وكذلك من رأى حال الشمس وقت طلوعها ، واستوائها وغروبها ، في الأوقات

(١) سبق تخريجه ص ٣٣٢ .

(٢) سبق تخريجه ص ٣٣١ .

الثلاثة على بعد واحد وشكل واحد، ممن يكون على ظهر الأرض علم أنها تجري في فلك مستدير، وأنه لو كان مربعاً لكانت وقت الاستواء أقرب إلى من تحاذيه منها وقت الطلوع والغروب، ودلائل هذا متعددة.

وأما من ادعى ما يخالف الكتاب و السنة فهو مبطل في ذلك، وإن زعم أن معه دليلاً حسابياً، وهذا كثير فيمن ينظر في الفلك وأحواله، كدعوى جماعة من الجهال أنهم يغلب وقت طلوع الهلال لمعرفة وقت ظهوره، بعد استساراه بمعرفة بعده عن الشمس، بعد مفارقتها وقت الغروب، وضبطهم قوس الرؤية، وهو الخط المعروض مستديراً - قطعة من دائرة - / وقت الاستهلال، فإن هذه دعوى باطلة اتفق علماء الشريعة الأعلام على تحريم العمل بذلك في الهلال.

واتفق أهل الحساب العقلاء على أن معرفة ظهور الهلال لا يضبط بالحساب ضبطاً تاماً قط، ولذلك لم يتكلم فيه حذاق الحساب، بل أنكروه، وإنما تكلم فيه قوم من متأخريهم تقريباً، وذلك ضلال عن دين الله وتغيير له، شبه بضلال اليهود والنصارى عما أمروا به من الهلال، إلى غاية الشمس، وقت اجتماع القرصين، الذي هو الاستسار، وليس بالشهور الهلالية، ونحو ذلك.

والنساء الذي كان في العرب: الذي هو زيادة في الكفر - الذي يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً - ما ذكر ذلك علماء الحديث والسير والتفسير وغيرهم.

وقد ثبت في الصحيحين عن ابن عمر عن النبي ﷺ أنه قال: «إنا أمة أمية، لا نكتب ولا نحسب، صوموا لرؤيته، وأفطروا لرؤيته»^(١).

فمن أخذ علم الهلال الذي جعله الله مواقيت للناس والحج بالكتاب والحساب، فهو فاسد العقل والدين.

والحساب إذا صح حسابه أكثر ما يمكنه ضبط المسافة التي بين الشمس والقمر، وقت الغروب مثلاً، وهو الذي يسمى بعد القمر عن الشمس، لكن كونه يرى لا محالة، أو لا يرى بحال لا يعلم بذلك.

/ فإن الرؤية تختلف بعلو الأرض وانخفاضها، وصفاء الجو وكدره، وكذلك البصر وحدته، ودوام التحديق وقصره، وتصويب التحديق وخطأه، وكثرة المترائين وقتهم، وغلظ الهلال، وقد لا يرى وقت الغروب، ثم بعد ذلك يزداد بعده عن الشمس، فيزداد نوراً، ويخلص من الشعاع المانع من رؤيته فيرى حينئذ.

(١) البخاري في الصوم (١٩١٣)، ومسلم في الصيام (١٥/١٠٨٠).

وكذلك لم يتفقوا على قوس واحد لرؤيته، بل اضطربوا فيه كثيرا، ولا أصل له وإنما مرجعه إلى العادة ، وليس لها ضابط حسابي .
فمنهم : من ينقصه عن عشر درجات .

ومنهم : من يزيد ، وفي الزيادة والنقص أقوال متقابلة ، من جنس أقوال من رام ضبط عدد التواتر الموجب لحصول العلم بالمخبر، وليس له ضابط عددي إذ للعلم أسباب وراء العدد، كما للرؤية .

وهذا كله إذا فسر الهلال بما طلع في السماء، وجعل وقت الغيم المطبق شكاً، أما إذا فسر الهلال بما استهله الناس وأدركوه، وظهر لهم وأظهروا الصوت به : اندفع هذا بكل تقدير .

والخلاف في ذلك مشهور بين العلماء، في مذهب الإمام أحمد وغيره، والثاني قول الشافعي وغيره، والله أعلم .

/وسئل شيخ الإسلام - رحمه الله تعالى : عن خلق السموات والأرض ، وتركيب النيرين والكواكب ، هل هي مثبتة في الأفلاك والأفلاك تتحرك بها ؟ أم هي تتحرك والفلك ثابت ؟ أم كلاهما متحرك ؟ وهل الأفلاك هي السموات ، أم غيرها ؟ وهل تختص النجوم بالسماء الدنيا ؟ وهل إذا كان الشمس والقمر في بعض السموات يضيء نورها جميع السموات ؟ وهل ينتقلان من سماء إلى سماء ؟ وهل الأرضون سبع أو بينهما خلق أو بعضهن فوق بعض ؟ وهل أطراف السموات على جبل أم الأرض في السماء كالبيضة في قشرها ، والبحر تحت ذلك ، والريح تحته ؟ وهل فوق السموات بحر تحت العرش ؟

فأجاب:

الحمد لله ، هذه المسائل تحتاج إلى بسط كثير لا تحتمله هذه الورقة ، والسائل عن هذه المسائل يحتاج إلى معرفة علوم متعددة ، ليجاب بالأجوبة الشافية ، فإن فيها نزاعاً وكلاماً طويلاً ، لكن نذكر له بحسب الحال .

أما قوله : الأفلاك هل هي السموات أو غيرها؟ ففي ذلك قولان معروفان للناس ، لكن الذين قالوا: إن هذا هو هذا احتجوا بقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ / خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا . وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا ﴾ [نوح : ١٥ ، ١٦] ، قالوا: فأخبر الله أن القمر في السموات .

وقد قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [الأنبياء : ٣٣] ، وقال تعالى : ﴿ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس : ٤٠] .

فأخبر في الآيتين أن القمر في الفلك ، كما أخبر أنه في السموات ؛ ولأن الله أخبرنا نرى السموات بقوله : ﴿ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَافُوتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ . ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ [الملك : ٣ ، ٤] .

وقال : ﴿ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ﴾ [ق : ٦] ، وأمثال ذلك من النصوص الدالة على أن السماء مشاهدة ، والمشاهد هو الفلك ، فدل على

أن أحدهما هو الآخر.

وأما قوله: هل الشمس والقمر تحركان بدون الفلك، أم حركتهما بحركة الفلك، ففيه نزاع أيضاً، لكن جمهور الناس على أن حركتهما بحركة الفلك.

وأما قوله تعالى: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ فلا يمنع أن يكون ما ذكره من أنهم يسبحون تابعاً لحركة الفلك، كما في الليل والنهار، فإن تعاقب الليل والنهار، تابع لحركة غيرهما، وقوله: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ يتناول الليل والنهار والشمس والقمر، كما بين ذلك في سورة الأنبياء.

/ وكذلك في سورة يس: ﴿وَأَيُّ لَهِمُ اللَّيْلِ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلَمُونَ . وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ . وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ . لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٣٧-٤٠].

٦/٥٩٤

فتناول قوله: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ ما تقدم الليل والنهار، والشمس كما ذكر في سورة الأنبياء، وإذا كان أخبر عن الليل والنهار بما أخبر به من أنهما يسبحان، وذلك تابع لحركة غيرهما مثل ذلك ما أخبر به من أن الشمس والقمر يسبحان تبعاً للفلك، وعلى ذلك أدلة ليس هذا موضع بسطها.

وأما النجوم، فإن الله أخبر أنها زينة للسماء الدنيا، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا زَيْنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ﴾ [الصافات: ٦]، وقال: ﴿وَلَقَدْ زَيْنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾ [الملك: ٥]، فقال بعض من قال: إن الأفلاك غير السموات، وإن المراد بالسماء الدنيا هنا الفلك الثامن، الذي يذكر أهل الهيئة أن الكواكب الثابتة فيه، وادعوا أن تلك هي السموات العلى، وأن الأفلاك هي السموات الدنيا، ولكن هذا قول مبني على أصل ضعيف، وأيضاً فإن الذي نشهده هو الكواكب.

وقال تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنُوسِ . الْجَوَارِ الْكُنُوسِ﴾ [التكوير: ١٥، ١٦] والخنوس الاختفاء، وذلك قبل ظهورها من المشرق، والكنوس رجوعها من جهة المغرب، فما خنس قبل ظهورها كنس بعد مغيبها، جوارٍ حال ظهورها، تجرى من المشرق إلى المغرب.

٦/٥٩٥

/ والشمس والقمر في الفلك، كما أخبر الله - تعالى - لا تنتقل من سماء إلى سماء. وليست السموات متصلة بالأرض، لا على جبل قاف ولا غيره، بل الأفلاك مستديرة، كما أخبر الله ورسوله، وكما ذكر ذلك علماء المسلمين وغيرهم، فذكر أبو الحسين

ابن المنادي ، وأبو محمد بن حزم ، وأبو الفرج بن الجوزي ، وغيرهم إجماع المسلمين على أن الأفلاك مستديرة ، وقال ابن عباس في قوله : ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ قال : في فلكة مثل فلكة المغزل ، والفلك في لغة العرب الشيء المستدير ، يقال : تفلك ثدي الجارية إذا استدار .

وقد خلق الله سبع أرضين ، بعضهن فوق بعض ، كما ثبت في الصحاح عن النبي ﷺ أنه قال : « من ظلم شبراً من الأرض طوقه من سبع أرضين يوم القيامة »^(١) وقد ذكر أبو بكر الأتباري الإجماع على ذلك ، وأراد به إجماع أهل الحديث والسنة .

وتحت العرش بحر ، كما جاء في الأحاديث ، وكما ذكر في تفسير القرآن ، وكما أخبر الله أنه خلق السموات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء .

والعرش فوق جميع المخلوقات ، وهو سقف جنة عدن التي هي أعلا الجنة ، كما ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : « إذا سألت الله الجنة فاسأله الفردوس ، فإنه أعلا الجنة ، وسقفه عرش الرحمن »^(٢) .

٦/٥٩٦ / والأرض يحيط الماء بأكثرها ، والهواء يحيط بالماء والأرض ، والله تعالى بسط الأرض للأنام ، وأرسلها بالجلال ؛ لثلاث ، كما ترسي السفينة بالأجسام الثقيلة إذا كثرت أمواج البحر وإلا ماتت ، والله تعالى : ﴿يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر : ٤١] .

والمخلوقات العلوية والسفلية يمسكها الله بقدرته - سبحانه - وما جعل فيها من الطبائع والقوى فهو كائن بقدرته ومشيتته - سبحانه .

(١) البخاري في المظالم (٢٤٥٣) ، ومسلم في المساقاة (١٦١٢/١٤٢) ، كلاهما عن عائشة . وروى الحديث بطرق

كثيرة أخرى في الصحاح وكتب السنن .

(٢) سبق تخريجه ص ٣٣١ .

/ وسئل - رحمه الله : هل خلق الله السموات والأرض قبل الليل والنهار أم لا ؟
فأجاب:

الحمد لله، الليل والنهار الذي هو حاصل بالشمس هو تبع للسموات والأرض، لم يخلق هذا الليل وهذا النهار قبل هذه السموات والأرض، بل خلق هذا الليل وهذا النهار تبعاً لهذه السموات والأرض، فإن الله إذا أطلع الشمس حصل النهار وإذا غابت حصل الليل، فالنهار بظهورها والليل بغروبها، فكيف يكون هذا الليل وهذا النهار قبل الشمس، والشمس والقمر مخلوقان مع السموات والأرض.

وقد قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠]، قال ابن عباس وغيره من السلف: في فلكة مثل فلكة المغزل.

فقد أخبر تعالى أن الليل والنهار والشمس والقمر، في الفلك، والفلك هو السموات عند أكثر العلماء، بدليل أن الله ذكر في هاتين الآيتين أن الشمس والقمر في الفلك، وقال في موضع آخر: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ / سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا . وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نوح: ١٥، ١٦]، فأخبر أنه جعل الشمس والقمر في السموات.

وقال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١]، بين أنه خلق السموات والأرض، وأنه خلق الظلمات والنور؛ لأن الجعل هو التصيير، يقال: جعل كذا إذا صيره.

فذكر أنه خلق السموات والأرض، وأنه جعل الظلمات والنور، لأن الظلمات والنور مجعولة من الشمس والقمر، المخلوقة في السموات، وليس الظلمات والنور والليل والنهار جسمًا قائمًا بنفسه، ولكنه صفة وعرض قائم بغيره، فالنور: هو شعاع الشمس وضوءها الذي ينشره الله في الهواء، وعلى الأرض.

وأما الظلمة في الليل فقد قيل: هي كذلك ، وقيل: هي أمر وجودي ، فهذا الليل وهذا النهار اللذان يختلفان علينا، اللذان يولج الله أحدهما في الآخر، فيولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل، ويخلف أحدهما الآخر، يتعاقبان كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠]، وقال تعالى: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ [يس: ٤٠]. بين - سبحانه - أنه جعل لكل شيء قدراً واحداً لا يتعداه.

فالشَّمْسُ لا يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وتلحقه، بل لها مجرى قدره الله لها، وللقمر مجرى قدره الله له، كما قال تعالى: ﴿وَأَيَّةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلَمُونَ . وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ . وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ ثم قال: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ [يس: ٣٧-٤٠]. أي لا يفوته ويتقدم أمامه حتى يكون بينهما برزخ، بل هو متصل به، لا هذا يفصل عن هذا ولا هذا يفصل عن هذا، ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ .

فالمقصود أن هذا الليل وهذا النهار جعلهما الله تبعاً لهذه السموات والأرض، ولكن كان - قبل أن يخلق الله هذه السموات وهذه الأرض، وهذا النهار - كان العرش على الماء، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ [هود: ٧].

وخلق الله من بخار ذلك الماء هذه السموات، وهو الدخان المذكور في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ . فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ١١، ١٢].

وذلك لما كان الماء غامراً لثربة الأرض، وكانت الرياح تهب على ذلك الماء، فخلق الله هذه السموات والأرض في ستة أيام، ثم استوى على العرش، فلك الأيام التي خلق الله - تعالى - فيها هذه .

/وسئل - رضي الله عنه - عن اختلاف الليل والنهار وإن الظهر يكون في دمشق ، ويكون الليل قد دخل في بلد آخر، فهل قائل هذا قوله صحيح أم لا ؟

فأجاب - رحمه الله :

الحمد لله رب العالمين ، طلوع الشمس وزوالها وغروبها يكون بالشرق قبل أن يكون بالمغرب ، فتطلع الشمس وتزول ، وتغرب على أرض الهند ، والصين ، والخط ، قبل أن يكون بأرض المغرب ، ويكون ذلك بأرض العراق قبل أن يكون بأرض الشام ، ويكون بأرض الشام قبل أن يكون بمصر ، وكل أهل بلد لهم حكم طلوعهم وزوالهم وغروبهم .

فإذا طلع الفجر ببلد دخل وقت الفجر ووجبت الصلاة ، والصوم عندهم ، وإن لم يكن عند آخرين ، لكن يتفاوت ذلك تفاوتاً يسيراً بين البلاد المتقاربة ، وأما من كان في أقصى المشرق ، وأقصى المغرب فيتفاوت بينهما تفاوتاً كثيراً ، نحو نصف يوم كامل .

والله - سبحانه - قد أخبر بأن الشمس ، والقمر ، والليل ، والنهار كل ذلك يسبح / في الفلك ، فقال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٣] ، وقال تعالى : ﴿ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس: ٤٠] ، والفلك ، هو المستدير ، كما ذكر ذلك من ذكره من الصحابة والتابعين ، وغيرهم من علماء المسلمين ، والمستدير يظهر شيئاً بعد شيء ، فيراه القريب منه قبل البعيد عنه ، والله أعلم .

آخر الجزء

من كتاب

الأسماء والصفات